رواية

ماشيم آزلبير

مريم الكصير

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شر أنفسنا وسيئات أعمالنا، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .

ماثيو آزلبير

تأليف: مريم الكصير

مقدمة

﴿ مرحبا عزيزي القارئ!

دعنا نصفي حسابات كانت بيننا قبل أن ندخل في صلب قصتنا، ونغوص في تفاصيلها المملة، فلْتَعْرفني أولا: أنا فيليب لوميز، أو بالأحرى أناك الأخرى، التي لطالما حاولت إخفاءها، وها هي الآن تناجيك، فلماذا لا ترد التحية...؟ ألم تتعرف على نفسك التي نفيتها؟ إنه أنا ذلك المسخ والورم الخبيث الذي تربى داخلك، أكل من قهر روحك، وعاش من شرها، كلما ازدتَ كرها، ازدتُ قوة، وسَهُل عليَّ الاستحواذ على ذاتك المسكينة، لعلك الآن تحاول التخلص مني عندما علمت أنك مصاب بِ "حمى لوميز" لكن أنا لا يمكن استئصالي أبدا، لأنني خُلِقت معك، وأقتات منك لأعيش، لكنك ستموت وحيدا، لأبحث لي عن الضحية الجديدة...﴾

الفصل الأول: ماثيو آزلبير

الحب أعلى من كل المشاعر وأصدق من كل النوايا، صعب علينا فهمه كإحساس، فهو عاطفة غير منطقية، ولا يمكن تعميمها على كافة الناس.

الحب شعور ليس له قاعدة، والرياضيات بعلمائها لا تستطيع وضع معادلة تحدد نوع هذه العاطفة، رغم أنه إحساس شديد الدقة، يأخذنا لعالم من الخيال، يجعلنا نتأمل في هذا الكون كما لو أنه خُلِق من خلال علاقة سابقة له، علاقة توازن دقيق، فكل جزيئة من جسدنا تسعى خلال حياتها إلى ربط علاقة تساهمية مع جزيئة أخرى، فيحصل الانسجام بينهما، ومن هنا يوجد الكون، ولهذا يسعى الانسان إلى تكملة بنيانه الداخلي والوجداني.

وهكذا اكتمل بنيان ابي آيزاك عندما التقى ظلعه المفقودة، كان دائما يحكي لي عن أول لقاء بينه وبين أمي، وخصوصا كيف أوقعته أمي في شباكها وبين براثين غرامها، فكان دائما يصف حبه لها بالحب الذي لا يطفئه حرمان ولا يقتله فراق.

سأحكي لكم نبدة مما قصَّه علي أبي فأمي كانت تخجل من أن تتكلم معي في هذا الموضوع.

يقول أبي:"كنا ندرس معا في نفس الجامعة لكن ليس في نفس التخصص، ذات يوم كنت كعادتي في فترة الاستراحة جالسا على مقعد لوحدي احمل كتابا وسط باحة الحرم الجامعي، فإذا بها تتقدم نحوي والريح يرقص وخصلات شعرها، وفستانها الذي قد غطى جسمها الرفيع بين طياته، لقد كانت فاتنة أم ان قلبي الذي فتن في تلك الثواني القليلة. وبعد ذلك اليوم بل وتلك اللحظة وأنا أبحث عن من تكون، وقد ساعدتني في ذلك صديقة مقربة لي وهي التي عرفتني عليها، وبعدها تعززت أواصر الود بيننا وصرنا نحب بعضنا حد الجنون.

لكن عندما تخرجت من الجامعة كنت ملزما بالانتقال الى هذه المدينة، والبحث عن عمل ولهذا السبب مرت ثماني سنوات لم نتقابل فيها، لكن كل واحد منا ظل محتفظا بنفسه لنفس الاخر، وما فتئتُ حتى حصلت على وظيفة في قسم المحاسبات، فكرست ما تبقى من وقتي للبحث عن نصف حياتي الذي ضاع مني، عندما لم تكن هناك وسيلة لتصلني اخبارها، أين هي؟ حتى الرسائل التي كنت اكتبها لم يصلني اي جواب منها. لذلك قررت السفر إلى مسقط رأسها، كنت خائفا جدا، لدرجة أنني لم أخف هكذا من قبل، علِّي لا ألقاها، أو أجدها قد أسست حياة بدوني ونست وعودي، عندما وصلت هناك سألت أحد القرويين عن آل

روبرت، فوجدتها عائلة مرموقة ولها شأن كبير في تلك القرية، فأصبح الخوف شديدا.

لقد كان الطريق طويلا لكنني أصررت على المضي قدما، عند وصولي هناك، وجدت بيتا فخما وسط حقل واسع من السنابل الخضراء، تأملت هذا المنظر الجميل ثم أتممت طريقي.

فسمعت صوتا عذبا يعزف أيقونة موسيقية جميلة وخريرَ المياه، اقتربت فرأيت على ضفة النهر تجلس فتاة شعرها اسود طويل مسدول، ترتدي فستانا أبيضا، اتسع بؤبؤ عيني، وتجمدت حركتي إذ بآثار قدمي نقشت في الأرض نقشا، ذهبت الكلمات، كانت درجة سكوني أقوى من أن تلاحظني، وأنا أراقبها وهي تغني بصوتها الذي يأسر قلبي، مرت عليَّ الثواني كأنها ساعات طوال متأملا في تقاسيم وجهها من بعيد.

عدت من شرودي، وما فتئت حتى هرولت إليها أضمها وأصرخ باسمها نتالي وجدتك، وجدتك، لكنها ظلت صامتة لم ترد على هتافي ولا على عناقي، ملامح وجهها لم تتغير، ارتجف قلبي وانتابني الحيرة، قلت لها في هدوء يحيل على خوف شديد:" ألم تتعرفي عليَّ؟ أنا حبيبك آيزاك" تحركت يدها لتلامس خدي، والدمعة تحاول ببطء التحرر من عينيها الجميلتين، حركت شفتاها قائلة:" لا أصدق، أهذا أنت حقا؟ وأخيرا ارتوت عيناي بلقياك

أمامي، كانت فقط رسائلك التي تؤنس وحشتي" وانهارت باكية تضمني إليها. وبعد طول انتظار، ها نحن ذا ندخل بيتنا الجديد، وأيدينا متشابكة ببعضها لا ترضى الانفصال، وتعاهدنا على الصدق والوفاء والدوام" انتهى

ومن هنا بدأت قصتي انا ايضا ماثيو آزلبير، من لحظة ما كنت أسمع تلك النبضات، نبضات قلب أمي، لقد كانت جد متسارعة، ماذا كان يحدث لم اكن اعرف، نور قوي يخترق عيني لأول مرة، قوة عظيمة تدفعني لمغادرة مكاني.

كأنه انفجار من الضوء يحول المكان من عتمته إلى النور، لازلت أشعر بارتباط قوي، بعد برهة من الوقت أحسست بالخوف وانعدام الأمان، لكنه ما فتئ حتى عاد ذلك الارتباط الذي جعلني بين أحضان أمي، تحملني ودموعها سطرت على محياها مدى سعادتها، وأخيرا يكلل حب والداي بطفل صغير رزق من روحهما حياة.

ترعرعت في جو حميمي جميل، أب يهتم لشأن عائلته الصغيرة، كأنها آخر مهمة له في هذه الحياة، فدائما ما ألاحظ البسمة على وجهه، ينشر الإيجابية فينا، وأم كل همها إتقان تربيتها لي وإحسان معاملة أبي كما لو كانت منبعا من العطف والحنان.

لكن هذا الحب لم يمنع عني سخرية الاخرين، لأنني شديد الارتباط بأمي، كنت لا أتحمل بعدها عني ولو لدقيقة، لطالما كنت أتعرض للتنمر من أطفال الحي، الذين كانوا يلقبونني بالطفل الصغير، لم أكن أتقبلها رغم أنني صغير فعلا، لكنني كنت مسالما جدا، وقررت الابتعاد عن هؤلاء المزعجين، فاتخذت غرفتي مكانا لأنعزل فيه مع نفسي.

لم أكن ولدا شقيا، بل كان طبعي هادئا، لا أحب الكلام كثيرا، ولا كثرة التجمعات، كنت انطوائيا عاشقا للوحدة، أحمل الفوضى التي تعج داخلي، وأغوص في عوالم نفسي، كنت أتمتع بمخيلة رحبة، أعشق الحوارات التي كانت بيني وبين نفسي فقط، كنت بالنسبة للآخرين طفلا غريبا، لكن بالنسبة لي فأنا فقط شخص يهوى اللعب مع نفسه، كنت أهوى قصص أبي الشيقة، كانت تساعدني على فرز جناحي والخوض في تفاصيل كل حكاية، دائما ما أختار الشخصية التي تعجبني فأتقمص دورها.

ارتدت المدرسة الابتدائية وعمري 6 سنوات، كنت متحمسا كثيرا لأول يوم لي، كان هدفي أن أصبح كوالدي رجلا يُعتمد عليه، وخلت أن تعلمي سيخولني لذلك.

لكن المدرسة كانت عبارة عن ضجيج، وأطفال يصرخون، وأنا لم أتعود على هذا الصداع، زملائي في الفصل سرعان ما تعودوا على حياتهم الجديدة وكونوا علاقات بينهم، لكن الجميع كان جسما غريبا بالنسبة لي، جلست في آخر الصف أنتظر مرور الوقت لكي أعود للبيت.

فجأة أسمع صوت المعلم ينادي بإسمي" ماثيو قم إلى السبورة، وعرف بنفسك أمام زملائك" مر الوقت ولم أستوعب أن الجميع فعلوا، تزحزحت من مكاني بصعوبة كصخرة ثقيلة، وصلت إلى هناك، وقلت:" اسمي ماثيو آزلبير" وعم صمتي المكان، ثم قال المعلم:" عرفنا عن عائلتك قليلا"، فأجبت:" أمي نتالي روبرت آزلبير، تعمل على تربيتي ورعايتي، وأبي آيزاك آزلبير، خبير محاسبات"، لكنه استمر في سؤالي " ما هو حلمك؟ ماذا تريد أن تصير في المستقبل؟" لكنني أجبته بسؤال غريب:" ما تقصد يا معلم؟" ضحك الجميع على إجابتي، تعجب المعلم مني وأبدى استياءا كبيرا. عدت إلى المنزل مكسور الخاطر، أسأل نفسي:" لماذا لم أستطع...؟ لماذا لا أعرف ماذا أريد أن أصير؟" ومن هنا بدأ السؤال المحير "ماذا أريد أن أكون؟"

ذهبت إلى أبي بعد أن عدت من المدرسة منزعجا، وسألته:" أبي، هل كنت تحلم منذ صغرك بأن تصبح محاسبا؟"

فأجابني ضاحكا:" لا يا بني، كنت أطمح أن أصير شرطيا، لكن الاقدار شاءت أن أكون محاسبا"، فقلت له:" وهل الاقدار تمنعنا من تحقيق أحلامنا؟"، أجابني مبتسما:" وهل هذا ممكن في نظرك؟ إن القدر مفهوم عميق، كما أن علمنا محدود جدا، فلا يمكننا معرفة ما يصلح لنا في المستقبل، لأننا لا نستوعب أي شيء لا نراه، وزد على ذلك، أن كل انسان مسؤول عن قدره"، أجابني أبي بإشكالية أكبر مما تساءلت عنه، ما جعل ذهني يلقي بالأسئلة العشوائية.

استمر عامي الدراسي بدون أصدقاء، ودون فهم قصد المعلمين وما المغزى من التعلم أصلا، كانوا يظنون أنني غبي، ودائما ما يتم استدعاء أبي أو أمي على ضعف نقاطي، ولكن ما يحملني على الذهاب إلى المدرسة هو مجهودهما في تغييري، والعمل على تحسين مستواي في الدراسة.

أتذكر قول أبي لي:" لكي تكون ناجحا بالنسبة لهم لا تكن متسائلا، لكن يا بني أوصيك أن تحتفظ بالطفل كثير الأسئلة لكن عليك أن تتفاعل مع ما يلقنونك إياه بإيجابية كأنه الصحيح الذي لا يقبل الخلط"، ولأول مرة منطق الطفل الصغير لان واستقبل نصيحة أبيه بصدر رحب، فبدأ أساتذتي بملاحظة

تحسني في الدراسة، رغم أنني لم أنجح حينها في الحصول على أصدقاء.

في حياتي المدرسية لم أسلم من التنمر أيضا، ولم أجد من يدافع عني، لأنني كنت وحيدا، وخصوصا عندما أصبحت التلميذ النجيب، كانت مجموعة من زملائي في الفصل يُكرِهونني على حل واجباتهم المنزلية، وآخرون يسرقون طعامي الذي تعده لي أمي، فأضطر إلى البقاء جائعا، أما المجموعة الأخرى فيتكفلون بضربي والسخرية مني كلما سنحت لهم الفرصة، كنت أخشى الذهاب للمدرسة دائما، فقد كانوا يهددون بقتلي في غالب الأحيان، لذا قررت الانتقال إلى مدرسة أخرى بعدما سئمت الوضع واشتكيت لوالدي.

لم أسلم من التنمر هناك أيضا، لكني لم أعد أكترث لهم، ولم أحصل على أصدقاء، رغم أن أبي وعدني بأنني سأجد صحبة جيدة بسهولة.

ذات يوم كعادتي خرجت من المدرسة، متوجها للمنزل، لكنني شعرت بيد تسحبني من الخلف حتى وقعت على الأرض.

-" هل أنت التلميذ الجديد هنا؟؟"

كان صبيا يكبرني تقريبا بثلاث سنوات على الأقل، كانت ثيابه رثة وممزقة، ويرافقه ثلاثة صبية مثله،

-" ماذا تريد مني؟"

أجاب ضاحكا:" عليك أن تعلم قوانين هذا المكان جيدا، قبل أن تطأ رجلاك الفصل عليك أن تحضر لي النقود"

-" ولماذا؟؟"

-" لأنني الزعيم"

ثم انهالوا عليَّ بالضرب والركل، كنت أصرخ من الألم وهم يتلذذون بضربي، والدماء تغطي وجهي وتلطخ ملابسي، لم أجد من يساعدني ويوقفهم عند حدهم، تمنيت لو أنني تركت الدراسة التي لا أجني منها سوى الإهانة والتخويف، تمشيت ببطء نحو المنزل وأنا أتألم كثيرا، لكنني مع الوقت تعلمت كيف أدافع عن نفسي وأردعهم عني، فلم اعد ذلك الطفل المدلل الذي يعود لوالديه كلما وقع في مشكلة.

الفصل الثاني: صوفي آزلبير

الأخوة منحة إلهية، ونعمة لا تعوض ولا تقدر بثمن، معناها الحقيقي يظهر في زمن تشرذمت فيه الروابط، وانتشرت فيه المصالح المادية والفردية.

قيل عن الأخ السند والعضد، وقيل أيضا هو شكوة الحب والعطاء، فالأخ يعطي كأنه لا يحتاج، فهو الخليل الذي لا يبلى، والصاحب الذي لا يتخلى، إنها علاقة سحرية تمد الانسان بطاقة إيجابية، وذلك عبر إحساسه بالانتماء إلى وسطه_ أسرته الصغيرة_ الشيء الذي يميز هذا الرابط عن باقي العلاقات، هو أن الإخوة تشاركوا نفس المكان الضيق، ونهلوا من نفس الحبل السري، واستقوا من نفس الثدي، وناموا على سهر نفس الأم، واحتموا بقوة نفس الأب، وما يميز الأخ عن الصديق، أن الأخ ومهما طال الخصام، لا يتحول إلى حقد، بل يزداد الشوق، وتعود المياه إلى مجاريها، بل يكون الخصام ذكرى مرحة في الحياة، هكذا هي الاخوة.

ذات يوم عدت من المدرسة مع السادسة مساءا، ووجدت أمي داخل غرفتها، جالسة على كرسيها المتأرجح، حضنتها لكنها لم تكتفي بذلك، عانقتني بقوة وقبلت جبيني قائلة:" لقد كنت

الفرحة الأولى، التي تدخل هذا البيت وتغمره بالسعادة" لم أستوعب المغزى من كلامها، وماذا أرادت أن تقول، ذهبت إلى غرفتي، مستأنسا بصور جمعتها، وألعابي المفضلة.

عاد أبي بعدي، ووجد أمي على حالها، ركضت عنده لكي أقبله كالعادة، وأحكي له عن يومي، فإذا بي أجده يضم إليه أمي ويقول لها:" لا أصدق هل فعلا ما تقولين؟"، لقد كانت فرحته كبيرة لا تسعها أرض ولا سماء، أول مرة أرى أبي يرقص من الفرح، لمحني أبي، واقترب مني قائلا:" شكرا على السعادة التي أنعم بها بسببك نتالي، شكرا جزيلا، تعالى يا بني أضمك وأبشرك بأخيك أو أختك المقبلين، لتكتمل الفرحة"، لكن كانت ردة فعلي غير طبيعية، تراجعت خطوة للوراء، وقلت لهما بغضب شديد:" لتكتمل الفرحة، فلتكتمل هذه الفرحة، لم أكن أعلم أنكما لا تحبانني، ولا تهتما لأمري، هيا فلتكتمل فرحتكما التي لم تكن مكتملة"

نظرت لأبي نظرة حقد وكره، الذي هو الآخر، حاول أن يفهم قصدي ولماذا تفوهت بتلك الكلمات؟ ذهبت إلى غرفتي مسرعا، وأغلقت الباب بشدة، كنت كلما أتذكر أنني سيغدو لي أخ يشاركني حبهما الذي كنت أحظى به لوحدي، أزيد حقدا على حقد، كسرت ألعابي، مزقت كتبي وصوري المفضلة، أمي وأبي

خلف الباب، يترجيان مني الهدوء، لكنني لم أكن أعي تصرفاتي، صرخت بأعلى صوتي:" اذهبوا، لا أريد منكم شيئا، فلتكتمل فرحتكما وسعادتكما، لا تهتما لشأني، لم أكن أعلم أنكما أنانيين لا تحبانني، ألم أكن ولدا جيدا لهذه الدرجة؟ لتستبدلاني بولد أخر، ألست طفلكما؟ لماذا أنجبتماني إذن أن كنتما لا تحبذان وجودي؟ أعتذر منكم عن الازعاج، احتفلوا بقدوم المولود الجديد"

-أجابت أمي باكية:" حبيبي ماثيو، لا تقلقنا عليك، فنحن نحبك كثيرا، من قال لك أننا نريد استبدالك؟"

-أبي:" يا بني، هذا الجنين سيكون أخاك الصغير، ستلعبون معا، وتنشؤون معا، سيكون صديقا رائعا"

-" ومن قال لك أنني أريد أصدقاء؟ لا أريد أي شيء منكما، أريد البقاء وحيدا"

بعد عدة محاولات لإقناعي بالعدول عن تصرفاتي، لكنني أبيت الانصياع لهما، ذهبت إلى سريري محاولا الخلود إلى النوم، لكنني كنت أجهش بالبكاء كأن لم يعد لدي بيت يأويني، ولا جذور تثبتني، فأحسست أنني لست منهم كالورقة التي فارقت الشجرة.

ولدت أختي يومه ال 21 من أكتوبر، كان ذلك اليوم أتعس يوم بالنسبة لي، رأيت أمي وأبي يحملان صغيرتهما ويداعبانها، ولا يكترثان لوجودي، فقط كنت أشاهد فرحتهما العارمة التي انتبه إليها جميع من كان في المشفى.

أبي:" ماثيو انظر، إنها فتاة جميلة جدا، أليس كذلك؟ قررنا أن نسميها صوفي، هل أعجبك؟"

-أنا بعدم اكتراث:" أين الجمال يا أبي فأنا لا أراه؟ اسموها ما تشاؤون، لا يهمني"

-" لم أربيك على أن تجيبني هكذا، ماذا حل بك يا بني؟"

- ثم ردت أمي رغم تعبها:" لا تنهره، لا يزال صغيرا"

-" اسبقني للسيارة، سنلحق بك هناك"

كانت أول مرة يتصرف معي أبي بتلك الطريقة، وقررت الهرب من هذه العائلة التي لم تعد تحبني، لكن أبي لحق بي، وعلم بما أسره في خاطري، فتلقيت منه كفا مؤلما، وأمسكني من ذراعي وأدخلني للسيارة رغما عني، فوجدت أمي تجلس في الخلف جانبي، تحمل ذلك المسخ بين أيديها، قررت ألا أبكي لكيلا أضعف أمام رضيعة صغيرة.

بعد ذلك أقاموا حفلا كبيرا، أعلنوا فيه اسم المولودة " صوفي آزلبير"، رغم أنني لا أتحمل صخب المدعوين، وضجيج الموسيقى الصاخبة، إلى أنني كنت هادئا، جالسا كالصنم جانب أختي الصغيرة-كما يسمونها لي-كنت أنظر إليها بعين غيرة وحسد، وقلت في نفسي:" أنا الوحيد الذي يعرف السر وراء هذه الابتسامة، تظنين أنك انتصرت عليَّ، لكنك مخطئة، فولداي يحبانني أكثر. كيف لهم أن يصفوكِ بالملاك؟ كيف لهم الا يلحظوا مدى بشاعتك أيتها الساحرة؟ افرحي الآن لقد أصبحت من آل آزلبير" والمسكينة صوفي كانت تنظر إليَّ ببراءة، وتبتسم لي، كأنها تعرفني...

مرت ثلاث سنوات، ولازالت صوفي تأخذ حصة الأسد من اهتمام أبواي، يسهران حتى تنام، يمرضان حتى تشفى، يجوعان حتى تشبع، إنها فتاة مدللة، وفي الأخير من يهتم لماثيو؟ لا أحد حتى أبي يقول لي أنني كبرت كثيرا على الدلال، كنت أراها كالساحرة الشريرة تبتسم بوقاحة وهي في حضن أمي، تمد يدها لتمسك بخدها كأنها تقول لي:" ابتعد! إنها ملكي، وليست لك، إنها أمي"، كنت أفهم كلماتها المشفرة التي لا تزيدني إلا كرها.

أظل حبيس غرفتي طوال الوقت، أشكي لألعابي همومي وأحزاني، تعلمت أن أشكو حالي لنفسي فهي أدرى بحالها أكثر

من أي شخص، كنت كثير الكلام حينما أختلي لوحدي، أحاول أن أخفف الهموم التي بداخلي، كنت كاليتيم وسط دفئهم الذي لطالما أحاط بي.

وفي المدرسة، أصبح الجميع يعجب لأمري، حتى الذين كانوا يتنمرون أصبحوا الان يهابون النظرة التي تعتلي محياي، أصبحت غريب الأطوار الذي يتجنبه كل من يراه، حتى وإن حاول أحدهم أن يضايقني كنت لا أعيره اهتماما، لم أعد أهتم لأي أحد، أعيش فقط داخل نفسي فهي العالم الذي ألجأ إليه، فهي لن تظلمني كما ظلمني كل هؤلاء.

ذات يوم وجدني أبي أنظر لها صامتا، فربت على كتفي وقال:" اتبعني، لنتحدث معا كراشدين"

-" حاضر يا أبي، سأوافيك حالا"

-" مالي أراك مستاءا هكذا؟ حالك ليست جيدة، أنت لست بخير، ما هذا الحقد والحزن الذي يعتليك؟"

-" لا يا أبي، لا يوجد أي شيء مما تقول لا تشغل بالك"

-" لا تكذب، فأنت شفاف كالزجاج، لا تستطيع إخفاء شيء عني، هيا تحدث فأنا والدك"

-" ماذا سأقول؟ ليس لدي ما اخبرك به"

-" أهي السبب في هذا؟" مشيرا برأسه إلى تلك الساحرة "أختك الصغيرة؟"

- بصوت خافت" ليس لدي أخت"

-" ماذا؟ ليست أختك، ماذا فعلت لتقول عنها هذا؟"

-" لا شيء..."

-" هيا قل لي بصوت أعلى، من تلك الفتاة التي تحملها أمك"

-" لا أعرف، المهم أنها ليست أختي"

يقع كلامي على قلب أبي كالسهام السامة، ينظر إليّ متسائلا:" كيف وصلت لهذا الحال؟"

ثم بدأت بالصراخ:" نعم، إنها تلك الفتاة البشعة، التي تحضنها أمي، منذ ولادة هذا المسخ هل عانقتني أمي؟ لم تفعل...، هل ناديتني من غرفتي لتسألني عن حالي كما كنت تفعل؟ لم تفعل...، في حين أنك تسرد لها قصة قبل النوم كل يوم، لا تلمني على ما تراه داخل عيني، أنا ليس لدي عائلة، وأنا أكرهكم من كل قلبي، ليتها ماتت قبل أن تولد، ليتها لم تكن أصلا"

كانت صدمة أبي بادية على محياه، حاول ضمي إليه لأهدأ، لكني ابتعدت عنه، نظرت إليه كأنه ليس أبي الذي كنت أحبه كثيرا، وانصرفت إلى غرفتي بهدوء، اعترضت أمي طريقي قائلة:" إنها أختك يا بني، لا تفعل هذا بنا، فنحن نحب كليكما، انظر إنها تبكي بشدة، لقد سمعتك تتكلم عنها بتلك الطريقة، أنها تحبك"

-" اذهبي لها، وقولي لها أن تمسح دموعها، فهي حقا لا تهمني"

أمسكني أبي من ذراعي غاضبا:" اصمت! أخبرني سببا يجعلك تكرهها لهذه الدرجة"

-" لا يهمك هذا"

ثم تلقيت منه كفا آخر، كان ذلك قاصيا جدا، لذا أجبته بعدوانية كبيرة

-" قال راشدين؟ أنا أكرهكم كرها شديدا ابتعدا"

- أجابت أمي:" آيزاك...! ماذا فعلت؟ ألا يكفيك حاله هذا؟ لا دعني أصفق لك"

-" لم أتمالك أعصابي، إنه فتا عنيد، لا يفهم أننا لا ننام خوفا عليه"

-" أعتذر، فلتناما، لا داعي لسهركما، دعيني أمر"، ثم ذهبت لغرفتي أستنجد بعالمي لعلني أنسى ما حل بي اليوم"

لازمت غرفتي لأسبوع، لا أسمح لأحد بالدخول، حتى قرروا فتح الباب بالقوة، فوجدوني مغما علي من سوء حالتي، وتغذيتي...، فرغم أن أمي كانت تجلب لي الطعام كنت غالبا ما أرميه في القمامة. أخذوني للمستشفى بسرعة، فعلمت أنني مصاب بمرض فقر الدم الحاد، وتزداد حالي سوءا عندما كنت أرى تلك الساحرة، وأتذكر أنها تمضي غالبية الوقت معهما.

عند خروجي من المستشفى، وعودتي للمنزل قررت الهرب من المنزل، كانت أغراضي فالسيارة فقلت لأبي أنني سأذهب لأحضرها، لكنني استغليت الفرصة وذهبت إلى حيث لا أعلم، وجدت في زقاق مجاور مستودعا قديما، فقررت الدخول هناك، كان المكان مظلما جدا، لم أكن خائفا لأنني تعودت المكوث في الظلام، لكنني سمعت صوتا ليس بغريب يناديني" ماثيو" إنها هي تلك الساحرة، لكن كيف عرفت أنني هنا؟ ذهبت إليها فوجدتها خائفة ترتعش، لقد تاهت داخل المستودع الواسع.

-" أخي، لقد تبعتك إلى هنا"

-" هيا! اذهبي للمنزل، أمي ستقلق عليك"

-" وستقلق عليك أيضا أخي، لنعد معا"

-" لست أخاك، هيا اذهبي"، نهرتها، ودفعتها حتى وقعت على الأرض، لكنها لم تبكي، بل قامت وأمسكتني من يدي، وقالت:" هيا لنذهب يا أخي، سأقول أنّي طلبت منك أن نتنزه معا قليلا"

-" هيا اذهبي، وقولي لهم أنني لن أعود مجددا"، ثم عدت لمكاني، لكنني وجدتها خلفي خائفة

-" لكنني لا أعرف طريق العودة"

-" يا لك من مصيبة وقعت على رأسي، إذن أنت ستبقين هنا...، ولكن بشرط أن لا تتفوهي بكلمة"

بقينا هناك صامتين لا نتكلم، حتى نامت الساحرة على كتفي، فقررت أن أعيدها للمنزل، لابد أن أمي خائفة عليها كثيرا.

الفصل الثالث: الصداقة

ماهي الصداقة؟ ما معنى أن يكون لديك صديق؟ إحساس لم أجربه من قبل، ولم يحكى لي عنه أبي، لكنني أعرف عبارة واحدة تقال" الصديق وقت الضيق"...

-"اهلا، كيف حالك؟ لقد غبت عن الفصل كثيرا" كان صوت زميلي في الفصل، لكنه لم يتكلم معي قط من قبل، فما باله الآن؟ أراه واقفا مستندا على الحائط يضع يديه في جيبه،ويتكلم كأنه يعرفني حق المعرفة لذا لم أجبه، وذهبت لأجلس في مكاني، تبعني ليجلس بجانبي قائلا:" ما خطبك يا صديق؟ لماذا لا ترد علي، الكل كان يسأل عن حالك" ورغم ذلك لم أجبه

-" حسنا! سأبدأ أولا، أنا إيفان لينكل"

-" لقد ثرثرت كثيرا، اذهب وابحث عن صديق في مكان آخر يثرثر معك"

- رد بنفس ابتسامته المتهكمة:" لا يا فتى ماذا تقول؟ لستَ اجتماعيا كما يبدو، مارأيك أن نصبح أصدقاء مثل الاخوة؟ فأنا ايضا لا أملك اصدقاء "

ماذا أسمع داخل طبلة أذني، وقعت كلماته هذه كالسهم، كأنه شغل منطقة الإنذار داخلي، لم أدرك حتى وجدت يداي تمسكان برقبته، أحاول خنقه، لكنه لم يصرخ ولم يحاول الدفاع عن نفسه، بل قال بابتسامته المعتادة:" لم أطلب منك سوى أن نكون اصدقاء؟"

-" ماذا تريد؟ اذهب قبل أن تلفظ آخر أنفاسك، أنا لست صديقك، ولا أخاك، ولن نكون أبدا، أفهمت هذا؟"

-" ما هذا الحقد؟ ما هذا الكره الذي تحمله داخل قلبك المتحجر، لست أفهم لماذا هذا العناد؟"

-" لا يهمك أمري"

-" لم أقل كلمة تستحق منك هذا الغضب" أحسست بنبرة صوته تغيرت، كأن شيئا ما يزعجه حول رقبته.

-" اصمت، أو اغرب عن وجهي"

لم أتمم كلماتي حتى سقط على رأسه مغشيا عليه، صدمت عندما رأيته جثة هامدة ملقية على الأرض حتى اصطدم راسه، ودمه يجري كمياه الوادي، قلت في نفسي:" هل قتلته يا ماثيو؟؟"،" ماذا فعلت؟" خرجت مسرعا أبحث عن الناظرة، عندما رأته على حاله قالت:" لا تهلع ماثيو، سيكون صديقك

بخير، إنه مصاب بالربو، علينا أن نأخذه للمستشفى بسرعة، خد الهاتف واتصل بالإسعاف فورا"

أخدت الهاتف ويداي ترتجفان، اتصلت بالإسعاف ونظري منصب تجاه إيفان الساكن دون حراك، وصلت سيارة المسعفين وأخدوه إلى المستشفى، لكن لم يطمئن لي بال، لم أشفق من حال أحدهم، ولم أشعر بأحدهم هكذا من قبل، فقررت حينها أن أتبع الإسعاف، ما عدت ألمحها لكنني واصلت الركض بكل سرعتي، إلى أن وصلت لمفترق طرق، وبدأت الدنيا تدور وتدور، كانت أول مرة أشعر بالتيه والضياع، رحت أسأل المارة كالمجنون:" هل رأيت سيارة الإسعاف مرت من هنا؟"،" هل يوجد مشفى هنا في هذه

الانحاء؟" فحز حالي في نفس أحدهم، فقرر أخدي بسيارته إلى هناك.

-" لا تخف سيكون كل شيء بخير"

-" أتمنى ذلك، هلا أسرعت قليلا يا سيدي؟"

-" ماذا حدث لهذا الذي تريد زيارته في المستشفى؟"

-" يعاني من مرض الربو"

-" هل هو صديقك؟"

بعد وقت وجيز:" نعم إنه صديق"

-" لابد أنه صديق مقرب جدا منك، لذا أنت خائف على حاله هكذا، أتمنى أن يكون بخير"

لم أجبه لأنني كنت شاردا، أفكر فيما دار بيني وبين إيفان، استغربت من طلبه ذاك، يريدنا أن نكون إخوة، رغم أنه لا يعرف سوى اسمي لأننا ندرس في نفس الفصل، لكنني تمنيت لو أقتله حقا، لولا تداركت نفسي وقلت بصوت خافت:" أتمنى أن يكون بخير"، قاطع السيد شرودي:" لقد وصلنا، دعنا نذهب ونبحث عن صديقك"

-" مرحبا آنستي، وصل للتو صبي في سيارة الإسعاف، مصاب بأزمة تنفسية"

ثم تكلمتُ مع الاستقبال:" اسمه إيفان لينكل"

-" نعم الطابق الثاني، الغرفة رقم 62"

-" شكرا آنستي، هيا اذهب وتفقد حال صديقك، لدي الكثير من الاعمال، أبلغه متمنياتي بالشفاء"

-" شكرا سيدي"

وأنا أصعد الدرج، شعرت بضيق شديد في صدري، وبحزن عميق يحتل داخلي، ما فتئت حتى انهمر الدمع من عيني، كنت أسير ببطء شديد إلى أن وصلت للغرفة رقم 62، نظرت خلال النافذة، فرأيته ممددا لا يتحرك، تجلس إلى جانبه أمه التي كانت تذرف الدموع خوفا على ابنها، وهي تمسك بكلتا يديه، وأبوه يستند على الحائط شاردا في حال أبنه، قلت في نفسي:" ماذا فعلت؟ لقد أسأت التصرف معه بشدة، لكن لماذا لم يمنعني؟ لماذا لم يدافع عن نفسه؟"

لمحتني أمه، وتوجهت نحوي، عانقتني بشدة، لكنني لم أدري لماذا؟ أهي لا تعلم أنني السبب؟

-" شكرا لك صغيري، لقد أنقذت ابني، لقد أخبرتني الناظرة بكل شيء، لو لم تكن مع ابني في الفصل عندها لما استطعنا إنقاذه الآن، تفضل بالدخول، لابد أنك قلقت عليه، هل أنتم أصدقاء؟"

لم أستطع أن أجيبها، كيف أجيبها وأنا السبب في أزمة ابنها، كيف أحطم ثقتها وأنا الذي أرقد ابنها في هذا السرير المحاط بضجيج الآلات التي تتصل بجسمه النحيل، أجلستني أمه على كرسيها إلى جانب إيفان قائلة:" لم يكن له أصدقاء، وليس لديه

إخوة، لاشك أنك ماثيو، لقد كان يحكي عنك كثيرا، وكان يقول:" يوما ما سنكون أصدقاء"

-" هل يتمنى أن يكون لديه أخ؟"

-" نعم! كثيرا، لطالما كان يتمنى أن تكون لديه أختا صغيرة مدللة، لكنني لا أستطيع الآن" قالتها وهي تنظر لزوجها الذي لا ينطق بكلمة.

-" عذرا سيدتي، سأذهب للمنزل، لابد أن أمي قد قلقت علي"

-" اعتني بنفسك، سيوصلك زوجي بالسيارة"

-" لا داعي، بيتنا قريب جدا من هنا"

-" أمتأكد من هذا؟؟"

-" نعم أعرف الطريق جيدا، شكرا"

كان الطريق طويلا لكنني اخترت أن أبقى وحيدا لبعض الوقت قبل أن أصل للمنزل، لقد وجدت أمي تنتظر مجيئي، لاحظت خوفا شديدا على محياها، فأخبرتها أنني كنت في المتنزه استنشق بعض الهواء النقي.

مرت أسبوع على غياب إيفان من المدرسة، أحسست أنني اشتقت إليه كثيرا، كنت أنظر إلى مقعده الخالي كل يوم.

عاد ذلك المشاكس بعد ثلاث أسابيع، حتى استعاد عافيته بالكامل، لم يجلس في مكانه المعتاد بل جلس بجانبي، كنت مستغربا من تصرفاته، همس لي قائلا:" يا صاح، ألن ترحب بقدومي؟"

-" مرحبا، فلتنتبه لما يقول المدرس"

-" حسنا، هل نلتقي بعد الفصل؟"

-" لا مشكلة، فلنتقابل إذن"

-" أنا أعتذر عن ازعاجك"

عن أي انتباه أتحدث، وأنا طوال الحصة أفكر فيما يمكن أن نتحدث، لماذا طلب مني أن أقابله؟ انتهت الحصة وحان موعد اللقاء.

-" سأسبقك إلى باحة المدرسة عند شجرة البلوط ماثيو"

-" حسنا، سألحق بك"

وعند شجرة البلوط قلت له:" أهلا صديقي"

-" لا تثرثر مرة أخرى أرجوك، قل ما عندك بسرعة"

-" ما بك؟ ألم تشتق لصديقك؟ لقد علمت من أمي أنك من أنقذتني، وأنك زرتني في المستشفى، أعتذر منك لأنني لم أستطع مقابلتك، لكن لا تقلق أنا بخير"

-" يا هذا! لا تكذب على نفسك، هل فقدت ذاكرتك؟ ألا تعلم أنني أنا السبب في أزمتك تلك، عن أي صداقة تتحدث؟"

-" لكن يا صديقي، لولاك لما كنت اليوم أمامك، ماثيو لم تكن أنت السبب، بل أنا كنت أعاني من ضيق تنفس فحسب"

-" هل جننت؟ ألا تذكر أنني وضعت يدي حول رقبتك"

- إيفان مبتسما كعادته:" لكنني أتذكر جيدا أنني أغضبتك كثيرا، ولم أنتبه لحالك السيء، أنا آسف"

-" إذن لا تثر غضبي هذه المرة، سأذهب"

-"لقد أخبرتني أمي أنك صديق جيد، لماذا أنت هكذا؟ تهرب دائما، لنكن فقط أصدقاء هذا ما أطلبه منك"

-" فلنكن إذن، لكن بشرط لا تناديني بصديقي، اسمي ماثيو، ماثيو آزلبير"

-" أعلم! وأنا إيفان، سررت بمعرفتك صديقي، سأناديك بصديقي، لكن أنت لا تفعل إيفان كافية"

-" يا لك من عنيد" ابتسمت قائلا:" لقد غلبتني"

-" لن أموت شقيا، لقد رأيت ابتسامتك أخيرا أيها العبوس"

-" كيف حالك الآن؟"

-" أنا بخير، لنذهب لقد حان وقت الدرس"

لن أنسى ذلك اليوم، فقد كانت أول مرة أرافق فيها أحدهم للفصل، علمني إيفان أن الطيبوبة ليست عيبا، وان الاعتذار من كمال النفس، لكن الكره والحقد على الاخرين بدون سبب عيب ، لكنني ولحسن حظي وجدت إيفان، يطلب مني العفو، رغم أنني أذنبت في حقه، يوما ما سأعتذر منه...

الفصل الرابع: شبح الموت

كنت نائما في غرفتي بهدوء، وإذا بي استيقظ على صوت إطلاق النار الذي لم أسمع دويه في حياتي، انكمشت في سريري من شدة الخوف، لا أعلم ماذا يحصل؟ مال هذا الصوت قريب لهذه الدرجة؟ ماذا يجري؟ هل أصيب أحدهم؟ تترنح الأسئلة داخل رأسي، خائف لدرجة لا أستطيع استطلاع الامر.

وبعد تلك اللحظات الساكنة سمعت صرخة أمي تتوسل إليه قائلة:" آيزاك...، أرجوك...، أتوسل إليك أن تترك أطفالي، خد كلما نملك، خد كلما تريد لن أبلغ الشرطة، أعدك...، إلا صغاري...، أرجوك" لكن الغريب لم يأبه برجاء أمي له، واستمر في ضحكاته وقهقهته الشريرة ليقول بعدها:" وأنا هنا لآخذ أغلى ما لديك" فصرخت أمي خائفة أن يصيبنا مكروه أنا وأختي.

علمت من جدالهما أن أبي قد أصيب فعلا، فأصابني من الرعب ما شل حركتي، وأثقل لساني، وكانت المصيبة...، لقد سمعت صوت الرصاص للمرة الثانية، ليختفي صوت أمي المرتجف، علمت بعدها أن مصيري محتوم بالموت، وما فتئت حتى انتفضت من مكاني بسرعة، لأحكم إغلاق باب الغرفة، وأردف

إليه خزانتي رغم ثقلها، ومكتبي، واختبأت في الخزانة المؤصِدة للباب، وبقيت فيها طويلا، أومئ بعيني الناعستين، ورأسي المتدلي.

فإذا بي أفاجأ من خلف الصمت الذي عم مع رحيل أمي، بصوت المسدس يخترق قفل الباب، ثم دفعه بقوة حتى مالت الخزانة على المكتب، دلف الغريب إلى غرفتي بتهكم، تمسكت بجوانب الخزانة بشدة، كأنها أملي الذي ينجيني من الموت، خشيت أن يفتح باب الخزانة فيكشف أمري، كنت متوترا جدا، كان العرق ينصب من جميع انحاء جسمي، وأنا أرى ضخامة جسمه في ظله المنعكس وضوء القمر

الغريب:" تختبأ مني...، لا تخف، أعد أنك لن تتألم كثيرا، هيا يا صغير..."

جلس قليلا فوق السرير، ثم بادر بالخروج، دون أن يجدني، بعدها تنفست الصعداء، ولكني سمعت الطلقة الثالثة، وعرفت معها أن أختي الصغيرة قد أصيبت، ذرفت دموعا كثيرة لم أذرفها من قبل.

سمعت صوت الباب الخارجي للمنزل فعلمت أن القاتل راحل بعد أن أكمل جريمته النكراء، فانتظرت بعض الوقت لأتأكد من رحيله، فتحت باب الخزانة لأجد سريري ملطخا بالدماء، تركت

خوفي، واستجمعت شجاعتي، وخرجت أستطلع الامر وماذا جرى؟ لأجد الأرض بطابعها الأحمر الجديد، كانت دماءا متدفقة من جسم أمي المكبلة على كرسيها المتأرجح، ودماء صوفي التي اخترقت الرصاصة جمجمتها، كأن شبح الموت حصد كل شيء، لم أقوى على الحراك، جحظت عيناي من شدة الصدمة، لم أستوعب بعد ماذا يحصل أمامي؟

وإذا بي أفاجأ من خلفي بطلقة رابعة تخترق صدري، فوقعت على الأرض أسبح في بحر دمائي أنا أيضا، رأيته راحلا مفتخرا بعدما أطاح بي، يبتسم ابتسامة خبيثة، كأنه يقول:" الان انتهيت".

فتحت عيناي لأخذ نفسا، وجدت نفسي نائما على سريري كما قبل الحادثة، لم أصدق أنه كان مجرد حلم، قفزت من مكاني، وهرولت إلى غرفة والداي، أطمئن عليهما، قبلت جبينهما وهما نائمان، أمسكتني أمي من يدي فاتحة نصف عينيها قائلة:" ماذا تفعل هنا يا صغيري؟ هل اشتقت إلى حضن أمك يا حبيبي؟ تعال إلي أحضنك لكي تنام ".

حضنتني بقوة كأنها تودعني، أو أنها رأت ما رأيت، ذرفت دموعا كثيرة لعلها لم تلاحظها وأنا في حضنها، تبسمت أمي بعدها

وقالت:" لابد أنك رأيت حلما مخيفا، تعال ونم بجانبي، هيا قبل أن يستيقظ أبوك، فهو منهك كثيرا اليوم لذا ينام بعمق كبير".

تأملت كثيرا أبي وهو نائم، فهو الوحيد الذي لم أستطع أن أراه في حلمي ميتا.

-أنا:" لا يا أمي، سأذهب إلى غرفتي، فأنا كبير كفاية لأنام وحدي"

لم أذهب إلى غرفتي، بل اتجهت إلى غرفة الصغيرة صوفي، أختي التي لطالما حقدت عليها وكرهتها، لكنني لا أريدها أن تموت بتلك الطريقة، ذهبت إليها فوجدتها غارقة في نوم هنيء، فأمسكت يدها وغفيت على طرف سريرها، خفت كثيرا أن تذهب عائلتي وتتركني وحيدا...

في صباح ذلك اليوم ذهبت إلى المدرسة والتقيت صديقي ايفان ينتظرني كعادته عند شجرة البلوط التي أصبحت مكاننا المفضل للجلوس معا، لكنني وجدته مبتذل الحال، حواجبه متلاصقة على غير عادتها عيناه غائرتان ومبللتان، ورأسه مطأطأ إلى الأسفل، ناديته من بعيد.

-" إيفان صديقي"، فانتبه إلي ليجيب:" مرحبا صديق، أراك اعتدت كثيرا على مناداتي هكذا، هل نسيت اسمي أو ما شابه؟"

-" وهل ضايقك هذا؟ نعم سأناديك صديقي رغما عن أنفك، المهم، ما خطبك اليوم؟ ماذا يزعجك هكذا؟"

-" لا يا صديقي، استغربت قليلا منك، لا مشكلة لدي...، لا تقلق بشأني"

-" لا أنت لست بخير، مالي أراك على غير عادتك يا صاح"

- ليحني رأسه قائلا:" لا شيء جديد، أمي وأبي يتعاركان كل صباح كالعادة، الروتين الذي لن أتخلص منه، يعني...، لكنني أخشى أن يتطور الوضع بينهما"

- ربتت على كتفه وقلت له:" لا تقلق صديقي، سيعودان كما كانا سابقا"

- قال ضاحكا:" كما كانا سابقا؟ لم أعد أذكر" ثم عاد إلى هيئته السابقة:" إنهما حتما ينويان الطلاق، ماذا أفعل؟ أحبهما معا، لكنني أكره أبي حينما تتطاول يده على أمي"

-" لم تحكي لي من قبل عن مشاكلك" ثم قلت" لنذهب سنتأخر على الدرس، سنلتقي هنا بعد ذلك، وتحكي لي جيدا"

-" حسنا هيا..."

وعدنا بعد الحصة إلى شجرة البلوط ليحكي لي صديقي عن مشاكله العائلية التي لا تنتهي، فكنت ممتنا على الهناء الذي يعم بيتنا، والحب الذي يكنه أبي لأمي.

تذكرت ذلك الحلم الغريب، وسألت نفسي هل يستحقون مني ذلك الاقصاء؟ لقد عاديتهم طويلا، ما كان السبب وراء الحقد الذي أكنه للساحرة، كانت كلما جاءت إلي طردتها، اشتقت إلى حضن أمي، وقصص أبي المشوقة، التي لطالما كانت تعلمني الكثير من الدروس. قاطع إيفان شرودي -" أين ذهبت؟ ماثيو لم تحدثني عن أسرتك من قبل"

-" حقا؟ ما رأيك أن تبيت معنا في منزلنا نهاية الاسبوع، وعندها تتعرف عليهم، صديقي إن لدي أختا ثرثارة مثلك تماما، تتوافقان معا، وأمي أمهر طباخة، وأبي راوي قصص بارع"

-" فكرة رائعة، حسنا ماثيو، سأستشير أمي أولا"

-" حسنا ايفان، أراك لاحقا"

ودعته، وأسرعت إلى المنزل، كانت دراجتي تتسابق والرياح، حتى وصلت، طرقت الباب بقوة طرقات متتابعة، فتحت أمي الباب قائلة:" ما بك بني؟ هل يلاحقك أحدهم؟"

-" لا يا أمي، إنني جائع جدا، وقد اشتقت كثيرا لطبخك اللذيذ، أين هو والدي؟ هل عاد من العمل؟"

فرحت أمي كثيرا عندما رأت حالي يتحسن شيئا فشيئا، وعدت ابنها المطيع.

قابلت الصغيرة بابتسامة:" الساحرة الصغيرة، كيف حالك؟ تعالي، اتبعيني، سأحكي لأبي عن صديقي ايفان، يمكنكي الجلوس معنا"، وناديت أبي ليعلم أنني عدت من المدرسة

أبي:" أراك متحمسا اليوم، هل من جديد؟"

أجيبه بابتسامة عريضة، ماسكا بيد أختي دون أن أشعر، ألعب بأصابعها:" نعم، إنه صديقي إيفان"

-" آآآه، اخفيت عني سرك، لن أغفر لك مرة أخرى"

-"حسنا، إنه صديقي الجديد، اسمه ايفان"

-" تعالي صغيرتي، لنسمع حكاية ماثيو مع صديقه إيفان"

وبدأت بالسرد منذ أن خنقته بيدي إلى أن أصبحنا صديقين مقربين، وشجرة البلوط التي أصبحت مكاننا المفضل.

أجاب أبي مصدوما:" ابني! لا أصدق، كدت تقتل الصبي، حقا ساءت حالتك كثيرا، تعال إلي يا بني أضمك إلي، وأهنك بهذا الصديق الجيد"

-" أبي لقد عرضت عليه أن يبيت عندنا نهاية الاسبوع، لقد أخبرته هذا لكي أعرفه عليكم وتتعرفوا عليه"

- أمي:" وها هو الطعام قد جهز، إنها الاكلة التي تحب يا ماثيو، لقد سمعت قصة صديقك الجديد عندما كنت في المطبخ، دعه يزورنا وأعد لكما من الطعام ما تشتهيان"

- صوفي:" أنا أحب أخي ماثيو"

-أنا:" لقد صرنا إخوة، لن أغضب عليك مرة أخرى إن ناديتني أخي ماثيو، ساحرتي الصغيرة"

فتحمست صوفي كثيرا، وضلت تردد عبارة " أخي ماثيو" اليوم بأكمله، غمرتني سعادة لا توصف، ما أجمل دفئ الاسرة! لا أريد أن أكون وحيدا، فليس لي سواهم، فقررت عوض الاختباء في الخزانة، سأموت معهم، ولن أخاف من ذلك القاتل، ولا من رصاص مسدسه، فعائلتي هي أحسن عائلة في العالم.

****

انتظرت يوم العطلة بفارغ الصبر لكي أعرف صديقي إيفان على عائلتي الجميلة التي أفتخر بها كثيرا، لكنه قبل ذلك بيوم.

- قال لي:" صديقي...، لا يمكنني المجيء، أمي تخاف عليّ كثيرا، وانت تعرف حالي جيدا، أولا لابد لها أن تقابلك، وتوصيك أشد الوصاية علي"، ثم أضاف:" هيا معي، أنا أعزمك يوم العطلة، لا تنزعج أبي لا يوجد في المنزل، سيكون بيتنا هادئا هذه الأيام"

- أنا:" سأستشير أمي وأوافيك بخبر غدا"

ذهبت إلى المنزل، وفاتحت أمي في موضوع إيفان، محاولا إقناعها أن تسمح لي بزيارة صديقي

- أنا:" أمي هل ستسمحين لي أن أبيت عند إيفان يوم العطلة، ستأتي أمه لتصطحبني من أمام المدرسة غدا، هذا لأن إيفان مريض كما تعلمين، لذا عليها أن تشرح لي كيفية التعامل معه"

- أمي:" لكنهم يعانون مشاكل كثيرة، أخاف عليك يا بني أن تتأثر، وتسوء حالتك أكثر"

-" أعدك أمي لا تخافي، أخبرني إيفان ان أبوه لا يوجد في المنزل هذه الأيام،"

- " حسنا بني، لكن عدني أن تنتبه لنفسك، وترجع سالما"

-" أعدك أمي سأكون بخير"

-" غدا سأجهز لك حقيبتك الصغيرة، فيها بعض الأشياء التي ستحتاجها"

-" هل تعلمين يا أمي أنك أفضل أم في العالم؟ دعيني أقبلك"

في اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة، فقابلني إيفان باسما:" هل وافقت؟"

ففاجأته بعناقي له قائلا:" أجل صديقي وافقت"

وعند الانتهاء من الدراسة، وجدنا أمه تنتظرنا بسيارتها، رحبت بي كثيرا.

- السيدة سيلا:" مرحبا يا بني، إن إيفان يحكي عنك كثيرا، لكننا كنا قد تقابلنا في المستشفى العديد من المرات، سأشكرك مرة أخرى على جميلك ذاك"

- قلتُ لإيفان هامسا:" ألم تقل لها ماذا حدث حقا؟ لو علمت بما فعلت ستكرهني"

-" لا، لأنها أخبرتني أنك من أنقذني بعدها"

-" لكنني كنت السبب، أعتذر"

- ربت إيفان على كتفي باسما:" لا يهم ماثيو، المهم أننا أصدقاء"

-" لا أعلم لماذا تحبني لهذه الدرجة؟؟؟"

وصلنا إلى المنزل الذي يقع في شمال مدينتنا، لقد كان بناية ذات حديقة كبيرة جدا، يبدو أنه لعائلة ثرية فعلا، لكن تواضع إيفان معي لم يظهر عليه أنه من عائلة مرموقة لهذه الدرجة، كان البيت من داخله كأنه متحف، لقد كان الأثاث قديما لكنه يضفي رونقا جميلا، أتذكر حينما حدثني عن حب أمه للأشياء القديمة والتراث، تقول إنه تاريخ لا يجب التخلي عنه، لكن أعجبتني مهارة تصميمه التي تمزج بين الماضي والحاضر، وما إن توغلنا داخله حتى ناداني صديقي أن أصعد الدرج المؤدي إلى غرفته، لقد كان درجا غريبا، واللوحات الجدارية التي كانت تجسد أشخاصا يعذبون، والتماثيل المخيفة.

- فقلت منزعجا:" كيف تستطيع العيش هنا؟؟؟ أعجبني التصميم، لكنه مخيف، لا تعجبني هذه التماثيل، وهذه الصور"

-" لا تنزعج يا ماثيو، والان هذه هي غرفتي"

-" ماذا؟ هل تسمي هذه غرفة؟؟ إنها حديقة الاسرار، أين هو السرير؟"

- " نضغط هنا وتظهر حجرة النوم"

-" باب سري! لا سأجن صديقي، لكن غموض هذا المكان يروق لي"

لقد أمضيت وقتا رائعا وأنا أتعرف على أسرار منزله الغريب، ثم نادتنا أمه السيدة سيلا لكي نتناول الطعام، والغريب أن المائدة طويلة جدا تتوسط صالة كبيرة، وما إن بدأنا بالأكل حتى خاطبتني السيدة سيلا قائله:" هل أعجبك تصميم المنزل؟ أتمنى أن تقضي وقتا ممتعا معنا"

-" نعم، ذوقك رفيع جدا، كما أنك تحبين الغموض"

-" نعم، أتمم طعامك بني، إيفان أريد أن أكلمك في موضوع"

-" لا سيدتي، لقد أنهيت وجبتي، المعذرة"

تركتهما يتحدثان، وذهبت إلى الباب السري، دلفت هناك، واستلقيت على السرير، متأملا في السقف المنقوش، فدخل إيفان بعدها حانقا منزعجا

-" ما بك؟ ما خطبك؟"

-" هل تعلم أننا لن نبقى أصدقاء؟؟"

-" ماذا تقول ؟؟"

-" قررت أمي الاستقرار في الغرب "

-" كيف؟؟ ولماذا؟"

-" بعد أن يتطلق والدي، لن تستطيع أمي المكوث هنا، كما أنها وجدت عملا ومنزلا هناك، وأيضا لن ننتظر إلى حين صدور الحكم بالطلاق، لان أمي وكلت محاميا ينوب عنها، وسننتقل أنا وهي إلى المدينة الجديدة بعد أسبوع"

-" لابد أن نلتقي صحيح؟؟ حقا لقد بدأت تقبل أن لدي صديق، لا تنزعج مني لكنني أكره لحظات الوداع، لا تودعني عندها فقط اذهب"

-" سنلتقي، سنلتقي، شرطت على أمي أن أزورك في العطل"

-" لكن أتعلم أن المسافة بعيدة جدا من تلك المدينة إلى هنا"

-" وما المشكلة في ذلك؟"

انزعجت كثيرا، فتذكرت ألم الوداع، انقبض قلبي عندما جال في خاطري ذلك الكابوس المخيف، كنت أفكر فيما سيقع إذا ما أجبرت على توديع شخص عزيز، نقول إلى اللقاء في حين أننا لن نلتقي، كلها وعود لا نعلم مدى حقيقتها، لقد خلق الوداع لنستريح من الغرباء والغير المرحب بهم، فهل يمكن أن يودعني

الجميع؟ لأنني لا أستحق حبهم، انتابني شعور مزعج، بالكاد أستطيع التنفس بشكل مريح، ثم قاطع شرودي صوت إيفان الحاد، قائلا:" لماذا هذا الشرود؟"

-" يبدو أنني لن أنام الليلة"

-" لا تخف، لن يضرك شيء، لاتوجد اشباح"

-" أتظنني خائفا من تماثيلك هذه التي تنظر إليّ بطريقة غريبة؟"

-" لقد أخافتك هذه التماثيل فلتعترف"

-" ماذا؟ وهل يخاف المرء من شيء وقع في عشقه"

-" لم أكن أعلم أنك تتغزل بالغرف هكذا "

فضحكنا في صمت لكيلا تسمعنا السيدة سيلا، فتعرف أننا لا زلنا مستيقظين.

حل الصباح وزاد معه ضيق صدري، كان شعورا مزعجا جدا، كنت أجد صعوبة كبيرة في التنفس، لدرجة أنني أوشكت على السقوط من شدة الاختناق، ما كنت أريده حقا هو الذهاب إلى المنزل في أسرع وقت، ثم نادتني أم إيفان قائلة:" ماثيو، جهز نفسك، وانزل لتناول الفطور"

حدثني إيفان البارحة، أنهما سيمكثان عند صديقة أمه المقربة، ومن الان فصاعدا لا يحق لهما البقاء في هذا المنزل، كعقاب لأمه التي بادرت بقرار الطلاق، وأنهما سيكونان في الغرب الأسبوع المقبل، وأن المحامي الذي وكلته السيدة سيلا هو الذي سيتكلف بالقضية، كيف لأب أن يعرض استقرار ابنه للضياع؟

-أنا:" أتممت فطوري، سأجلب حقيبتي من الأعلى، علي العودة للمنزل"

ثم سمعت إيفان يقول لأمه:" لماذا هو مستعجل هكذا؟"

-" ربما لأنه لم يغادر عائلته من قبل"

-" ممكن!!"

ركبنا السيارة من جديد، وكان كلما اقتربنا من شارع منزلنا، يزداد ألم الاختناق، بالكاد أستطيع التنفس، لقد لاحظت هدوءا غريبا، كأنه الهدوء ما قبل العاصفة، يزيد ذلك الضيق حدة، ويألمني صدري، وعلا صوت زفيري حتى سمعني إيفان.

-" ما بك؟"

أجبته مبتسما:" لا شيء يا صديقي"

ثم نطقت أمه تقاطع حديثنا:" لابد أن نعود، لقد نسيت أوراق السيارة في المنزل"

ارتجف قلبي رجفة لم أعدها، فأجبتها بتوتر:" لقد اقتربنا، أرجوك أوصليني إلى منزلي"

وما إن توقفت السيارة في الضوء الأحمر، حتى فتحت الباب وترجلت مهرولا نحو منزلي.

الفصل الخامس: رحل كل شيء

لم أستطع الانتظار، لن يصمت الصوت الذي بداخلي، إلى أن تستقبلني أمي بابتسامتها المعتادة، باسطة إليّ ذراعيها لتضمني، سيكون كل شيء بخير، لم يكن سوى كابوس مخيف، جالت العديد من الأسئلة في ذهني، وأنا أعزم الخطى وأمضي إلى المنزل، يجتاح الخوف داخلي، كأن الواقع يخالف متمنياتي، يتبعني إيفان بصرخاته التي لا تكفي لإسكات ذلك الصوت المزعج.

-"تعال يا ماثيو لا تركض هكذا، هيا أيها المشاكس اصعد"

صعدت بالسيارة، فأسرعت السيدة سيلا وأنا أصف لها الطريق بيتنا، ثم خرج إيفان عن صمته قائلا:" ما بك صديقي؟؟ ماذا تخفيه عني؟؟"

أجبته في عجل، وأنظر إلى الطريق في تربص:" لا شيء صديقي، سيكون كل شيء على ما يرام"

توقفنا على حين غرة.

السيدة سيلا:" انظرا إلى سيارات الشرطة والاسعاف! وقعنا في الزحام"

-" لا مشكلة لقد اقتربت من المنزل كثيرا"

ثم غادرت السيارة، ليتبعني إيفان أيضا،

-" ماثيو انتظر، لقد أقلقتني، ما بك؟ "

-" سأخبرك بكل شيء عندما أتأكد من أن كل شيء بخير"

كنت لا أفكر سوى بأمي وأبي وصوفي، كنت أتمنى من كل أعماق قلبي أن يكونوا بخير، راودتني الشكوك، سيارات الشرطة ثم الإسعاف، وما إن دلفت إلى حينا حتى أرى الناس قد احتشدت، تبدو على وجوههم الدهشة، يضعون أيديهم على أفواههم.

-" ماثيو!! ماذا يحصل هنا؟"

-" لا تسألني، عليّ أن أستعجل"

وكانت المفاجأة، عندما اقتربت من منزلي وجدت الشرطة تطوق المكان وتحيطه بشريط أصفر ومنهم من يمنع فضول الناس من الاقتراب، وبعدها أخرجوا كيسين بلاستيكيين، ووضعوها في سيارة نقل الأموات، كان وقع الصدمة كبيرا لم أعرف ماذا سأفعل؟ هل ما أراه واقعا؟ أم أنه حلم أيضا؟ جثيت على ركبتي، وإيفان ينهال علي بالأسئلة التي لم أعرها اهتماما.

تحركت رجلاي بسرعة كبيرة مخترقا خط الشرطة برشاقتي وجسدي الصغير، أعلم أنني لن أستطيع وصف ذلك المشهد

المرعب، لن أنسى ذلك المنظر ما حييت والدماء لطخت الجدران، الأرضية والاريكة، كان كرسي أمي ملونا بالأحمر، لقد رأيتها مكبلة غارقة بدمائها، كما كان في الحلم، فتأكدت من أن ذلك الكابوس يتحقق.

عندها انفجرت من الصراخ، كلما زاد الضيق الذي لطالما عذبني تزداد نبرة صوتي حدة، أحس بكمية هائلة من الألم داخلي، أحسست بطعم الفقدان والخذلان، ندمت على كل ثانية بخلت فيها الحديث معهم، كيف سأرتاح من هذا الألم؟ كنت أمسك برقبتي كلما شعرت بالاختناق، بالكاد أستطيع تحرير أنفاسي، أبحث في كل الغرف، علني أجدهم متعانقين كعادتهم يواسون بعضهم البعض، أبحث عن رقعة صغيرة من الامل، ولا أرى سوى نفسي تحوم في أركان منزلنا.

ثم تساءلت عن مكان صوفي التي لم أجدها في غرفتها، وتمسكت بالأمل مرة أخرى، وقلت:" لعلها اختبأت في مكان ضيق لكيلا يجدها أحد، وأنا لم أشاهد سوى كيسين وليس ثلاثة" ثم امتدت يدا شرطي لتمسكني فترجيته مقاوما إياه بأن يتركني لأجد أختي الصغيرة، فعضضت يده ليفلتني، توجهت لقبو منزلنا، بحثت جيدا آملا إيجادها، نعم، لم يخذلني الامل هذه المرة.

وجدتها مكورة نفسها داخل صندوق خشبي قديم، أمسكت يدها وأخرجتها من الصندوق، ضممتها إليّ بقوة، انهمرت دموع كل منا على كتف الاخر، كنت أبكي مثلها، فقد أصبحت طفلا يحتاج للأمان، كنت أبكي كالطفل الصغير الذي أخذوا منه لعبته المفضلة وتركوه يترنح، كانت تقول لي:" أخي ماثيو، لقد كنت خائفة جدا، اريد أمي" طلبت منها أن تهدأ، ولم أسألها أي سؤال، ثم رفعت صوفي رأسها، وعينيها تملاهما الدموع.

-" هل بقينا لوحدنا الان؟"

-" لا تقلقي، أنا هنا، سأكون بجانبك للأبد"

ثم عانقتني، كأنني أملها الوحيد، وفعلا، لم يبقى لنا إلا بعضنا البعض، تستند علي، وأستند عليها، الان أحسست بدورها في حياتي، إنها السند بعض رحيل الأمان والحنان، علمت أنها ستعوضني عن فقداني هذا، إنها قوتي، والامل الذي سأحيى به. خرجنا من باب منزلنا الذي أصبح في طي النسيان، لنجد ذلك الحشد لازال قائما، تتطاول أعناقهم لرؤية ما حل بعائلة آزلبير، هرول نحوي إيفان قائلا:" ماذا يقع هنا؟ لماذا الشرطة تحيط بمنزلكم؟"

- أجبته مطأطأ الرأس:" رحل كل شيء، ونحن الان نجهل الوجهة التالية"

إذا بي أتفاجأ بأختي، تجرني، وتحثني على الجري، حتى فارقت يدها يدي، أنظر خلفي، فأجدها هاربة من الشرطة مخافة أن يمسكوا بها، التفتت لتناديني:" أخي ماثيو اهرب، أعلم مكانا جيدا للاختباء"، تبعتها لكيلا أفقد أثرها، وإيفان والشرطي خلفي، لكنها ما إن دخلت إلى ذلك الزقاق، اختفى أثرها، توقفت من دهشتي متسائلا أي الطرق سلكت؟ أوقفني الشرطي على حين غرة، قلة الحيلة، الضياع، وفقدان الامل، كلها أسباب لتشتعل النار داخلي، صرخت وصرخت، ولا أحد يشاركني ألمي، لا أحد يستطيع أن يخلصني من عذابي، كنت لا أنطق سوى أسمها " صوفي"، أرى إيفان جاثيا على ركبتيه ينظر إليّ والدموع تنهمر على خديه، لقد أمسكتني يدا الشرطي بقوة تأبى إفلاتي مرة أخرى، وكان قد أمر زميله بالبحث عن الصغيرة الضائعة.

-" أرجوك، أختي الصغيرة ذهبت بهذا الاتجاه، عليّ أن أجدها إنها لازالت صغيرة، لقد كانت خائفة جدا، إذا أصابها مكروه لن أسامح نفسي"

فغبت عن الوعي بين يديه، كنت أراني ممسكا بيديها الصغيرتين وتارة أداعب شعرها الناعم، كانت تناديني أخي ماثيو، ثم تهرول

نحوي لتعانقني، وضحكاتها تملأ المكان، وفجأة، قرنت حاجبيها مودعة إياي وأنا مكبل لا أستطيع إيقافها، أنادي عليها، لكنها لا تسمعني، ابتعدت كثيرا، استدارت تلوح لي، وبعدها تلاشت واختفت في الهواء.

استيقظت من غيبوبتي، فوجدت نفسي محاطا بأجهزة طبية مزعجة، وأول كلمة قلتها:" هل وجدتموها؟"

-أجابني إيفان:" إهدأ قليلا، سيجدونها لا محالة"

-" ماذا؟ ألم يجدوها إلى الان؟ إذن سأجدها بنفسي"

-" كيف ذلك يا ماثيو؟ الشرطة تقف أمام الباب، لقد أدخلوني بصعوبة لأتفقد حالك، ولم يسمحوا لأمي"

-" لا يهم، أعطني ملابسك، وامكث أنت مكاني، سأحتال عليهم، عليّ أن أجد أختي"

-" لكن...، إذا كشف أمرنا؟"

-" لن يعلموا إن لم تخبرهم أنت بذلك، هيا بسرعة، ليس لدينا وقت لنضيعه،"

-" لكنك متعب جدا"

-" قلتُ بسرعة..."

-" لكن إن تأخرت في العودة سأعلم الشرطة بذلك"

-" ما يهمني الان أن أخرج من هذا المشفى اللعين"

هربت من أمام الشرطة بعدما سنحت لي الفرصة، كنت أركض ولا أعلم إلى أين؟ سوى أنني أقصد ذلك الزقاق، رآني أحدهم أركض كالأحمق، فناداني:" يا هذا! ما الخطب هذه المرة؟"

فوجدته ذلك السيد الذي أوصلني إلى المشفى، عندما ضربت إيفان، فقلت له مستعجلا:" سيدي علي أن أجد أختي الصغيرة، إنها في خطر، لقد ضاعت مني ولا أعلم أين هي" ما إن أكملت كلامي، حتى أمرني بسرعة أن ألتحق به في السيارة.

-" اصعد أيها الشقي"، " هل تعرف إلى أين أنت ذاهب؟"

-" أرجوك، اذهب شمالا ثم استدر يمينا"

-" حسنا"

أسرع بسيارته، متبعا تعليماتي، كان يسألني كثيرا عن أمري، وعن والداي كثيرا

-" أليس لك والدين؟ دائما ما أراك وحيدا"

-" عليّ أن أجد أختي أولا"

-" يا لك من فتى، قد وصلنا للشارع..."

لم أعر أسئلته بالا ونزلت من السيارة، كان يناديني:" يا شقي، إلى أين أنت ذاهب؟؟"

توجهت نحو ذلك الزقاق، فركت رأسي علني أعرفها أي طريق سلكت، تذكرتها عندما قالت أنّها ستختبئ في مكان آمن، وتذكرت عندما وجدتها في الصندوق، فما جال في ذهني إلا ذلك المستودع المهجور، قد يكون أمثل مكان للاختباء، أسرعت إلى هناك، دلفت داخله، أتمعن النظر جيدا، كان مستودعا كبيرا جدا، يتكون من حجرات عدة، كنت لا أبرح إلا وبحثت بين البراميل والصناديق الكرتونية والآلات القديمة.

إلى أن رأيت ما لم تتوقعه عيناي، تردد في ذهني ذلك الوجه الخبيث الذي رأيته في حلمي، تجمدت حركتي لانني خفت كثيرا، ثم اختبأت خلف برميل كبير، كان يقول أشياء غريبة، يهمس إلى نفسه بهمهمات بالكاد أسمعها، كان يبحث عن أمر ما، تساءلت على ماهيته، إنها أختي، كانت تعلو ملامحه علامات الغدر والمكر، كنت أنظر في تربص إلى أختي الخائفة والمرتجفة، لاحظت أن لديها كدمات على وجهها، لم تقوى على الجري كما عاهدتها،

إنها في ورطة كبيرة، ماذا عساي أفعل؟ تجمدت مكاني للحظات من هول الصدمة، ترقبت ماذا كان يفعل بجسدها العاري أمامي، وهي تصرخ مقاومة إياه، كانت تتألم ولا زلت أنا في مكاني دون حراك، ثم دور يديه حول عنقها ليخنقها، لمحتني بعينيها البريئتين، كأنها تقول لي:" لا تقترب ستتأذى"، لم أستطع تحمل هذا المشهد المرعب، فصرخت بأعلى صوتي قائلا:" أيها الوغد الحثالة" ثم اندفعت نحوه بكل قوتي، لكنني ادركت حينها أن اختي قد فارقت الحياة، رأيتها في ذلك المستودع، تخطف روحها على يد متشرد لعين، وتقطع إربا، رأيت ذلك المجرم وهو ينهش لحمها كذئب مفترس وهي في عمر صغير، لقد سرق مني أملي، لم تسطع عتمة المكان ستر ما حدث، كيف والنور يشع من روحها التي تحتضر، لقد سمعت خرخرة نابعة من حلقها، الذي لطالما أزعجني بكلمة أخي ماثيو.

فارقتها روحها لتستقر داخلي، لم أشعر بتلك الطاقة من قبل، وما فتئت حتى حملت أداة حديدية صدئة، واقتربت منه لأطعنه في عنقه بكل ما أوتيت من قوة، إنها قوة الانتقام والثأر، فتوغلت جيدا داخله، فالتفت، فضربني بقوة لأسقط على رأسي، وجثى باكيا من الألم، يسب قدره البائس الذي رماني أمامه، ويسبني، اقترب مني، ووضع كتلته على جسمي الضئيل، وانهال عليّ

بالضرب واللكم على وجهي، كنت أريده أن يقتلني، لأنني أعلم جيدا كم أنا وحيد، لكنه سقط جثة هامدة، وألقى بجسده العفن فوقي.

أزحته عني بصعوبة، وزحفت إلى أختي أتفقدها، بعد أن فارقت الحياة أمام عيني بكل وحشية، أبت دموعي التدفق، وأبى صوتي البوح عن الغضب الذي يحرقني من الداخل، جلست بجانبها هادئا ألفُّ يداي حول قدماي، قصصت عليها قصتها المفضلة التي لطالما أزعجتني من أجل أن أقصها عليها، كنت أتمنى لو بإمكاني الرجوع بالزمن إلى الوراء، لأسترجع أوقاتي معها، لأسترجع أختي التي سرقت مني، تذكرت ابتسامتها الساحرة، لقد كانت أختا رائعة جدا، ولكنني كنت سيئا معها، كنت ذلك الوحش الذي احتمت به في آخر أيام حياتها، فخذلتها.

سمعت أبواق سيارات الشرطة تقترب شيئا فشيئا من المستودع المهجور، فودعتها قائلا:" صوفيا، ساحرتي الجميلة، ارقدي في سلام، لا تأبهي لشيء، ماثيو سينال عقابه، جزاءا لمعاملته القاسية ".

الفصل السادس: الوجه الاخر

الظلم ليس دمعة تخرج من أعماقك الملتهبة فقط، إنه نار تحرق صاحبها ليصبح هشيما، ويندثر كرماد داكن، لقد أصبحت مجرما مذنبا باسم القانون، في نظرهم أنا صبي تربى على العدائية والعنف، لا أعرف سوى أن أكره الناس وأبغضهم، كله كان ذنبي، بسبب أفكاري السوداوية واختياراتي البائسة، فقدت أعز ما أملك، نعم كذلك أنا ظالم، ظالم لنفسي، لأبي لأمي، ولأختي صوفيّا.

هذه الصغيرة البريئة، التي كنت دائما أتنمر عليها، أنعتها بأبشع الالفاظ الرديئة، كانت كلما حاولت الاقتراب مني دفعتها، لتسقط على الأرض بقوة، كنت أكرهها بشدة عندما لا تبكي، وتظل تبتسم رغم ذلك، لا تذهب إلى أمي لتشكيني لها، وعندما تتعرض للإهانة من طرف أطفال آخرين، لا أكترث لأمرها.

وسط زنزانة متساوية العرض والطول، ذات إضاءة خافتة، أقبع وحيدا هائما أفكر فيما فعلت، أتذكرها عندما كانت تصرخ، كنت أمسك رأسي بشدة لكيلا أسمعها، ثم تأتيني صورتها وهي ميتة، فأفرك عيني، حاولت أن أنام لكنني لم أستطع. استسلمت لشرودي، متأملا في سقف زنزانتي وقضبانها الحديدية، كنت

هائما في ذكرياتي الجميلة، اشتقت لماثيو الذي لم يكن يهمه شيئ سوى أن يعود من المدرسة ويلعب بألعابه، تذكرت انني ابتسمت قبل أن أغرق في دموع الاشتياق، ضربت رأسي مع الحائط قائلا:" لقد أصبحتَ وحيدا الان".

فجأة، في جوف ذلك الصمت الذي يعم أركان الزنزانة، استدرت للناحية الأخرى لأجد نفس الوجه المقزز، يبتسم كعادته لتظهر بشاعة لم أرها في شخص من قبل.

-" مرحبا، كيف حالك؟؟ أراك مهموما مصفرا نحيلا، ما الخطب؟"

لم أصدق نفسي أنني لازلت أراه أمامي، وصوته الخشن يخترق أذناي، وقعت من مكاني مرتجفا، لقد ارتبكت والتصقت بالحائط من شدة الخوف.

-" لا تخف مني لن أفعل لك شيئا"

-" ماذا تفعل هنا؟ لو كان لدي ما أطعنك به مجددا لفعلت"

فصفعني بقوة قائلا:"أكنت تظن أنك تخلصت مني بهذه السهولة ؟"

-" من أنت؟ ماذا تكون؟ ماذا تريد مني؟"

فعلت ضحكاته:" ألم تعرفني؟" جلس على السرير وقال" أنا!! من أكون يا ترى؟؟"

-" من تكون يا هذا؟ أجبني"

-" حقا لا تستخدم عقلك جيدا، أنا هو أنت"

-" ماذا؟؟ أنا لا أمزح معك يا هذا"

-" فكر كيف دخلت لهذه الزنزانة، رغم أنها محكمة الاغلاق، نحن متشابهون كثيرا، كلانا أقدمنا على نفس الجرم في حق أختك، لكنني من دفعت الثمن، أتظنني سأتركك تهنأ بحياتك البئيسة"

لم أستطع أن أجيب، أحسست بصداع شديد، كان عروق رأسي ستنفجر، كأنني وسط دوامة أو إعصار، لا أسمع سوى صوته الغريب حتى تلاشى، وذهب فجأة كما ظهر فجأة، كنت مستلقيا على الأرض، لم أستوعب ما حدث، هل ما حدث صحيح؟؟.

جاء الشرطي إليّ فوجد ما جلبه لي من طعام لا يزال على حاله.

-" صبي عاص، تعال معي"

سألته بخوف شديد:" إلى أين؟"

-" لا تخف، يريد سيدي أن يأخذ أقوالك"

-" حاضر..."

-" أمرك مستعص مثلك"

-" أنا بريء"

-" أعلم ذلك..."، قالها وهو يستهزئ بحالي، كأنه لا يصدق أنني كذلك، لم أظلم ذلك المجرم لقد كان يستحق الذبح، حبست نفسي عن البكاء لكيلا يعتقد أنني أريد إثارة عاطفته.

دلفت إلى غرفة مظلمة، يتوسط سقفها مصباح لا يكاد يضيء إلا رقعة منها، حيث يوجد هناك مكتب مربع وكرسيان متقابلان، لم أكن مكبلا بأصفاد، تجولت في تلك الغرفة ألامس جدرانها، حتى دخل علي رجل طويل ونحيف بعض الشيء، مد يده للسلام، فمددت يدي أنا الاخر.

-" كيف حالك؟"

-" المهم أنني لازلت حيا"

-" لماذا تقول هذا؟"

-" لأنني أتمنى حقا لو مت معهم، لماذا ذهبوا من دوني؟"

-"حقا؟ لكن أنت لا تعلم أن الرأي العام لديه فرضية أخرى، والشرطة تبحث في الموضوع"

-" فرضية اخرى؟"

-" نعم...، صبي في عمر 15 سنة تمكن من قتل رجل يعادل ضعف حجمه، ألن يتمكن من قتل أمه ببساطة؟"

-" ماذا؟؟؟ أنا لا يمكنني فعل هذا...، لم أكن في المنزل حتى، أنا أحب والداي كثير، أنا لست من فعل ذلك بهم"

-" نحن نعلم هذا أيضا، لحسن حظك فصديقك أكد لنا أنك قضيت تلك الليلة في بيته"

-" ليتني كنت في المنزل معهم، لكنت الان في عداد الأموات"

-" فيليب لوميز، هل كنت تعرفه قبل الحادثة؟؟"

-" لا، لا أعرفه، لم أكن أعرفه"

-" لماذا قتلته إذا؟"

-" لأنه قتل أختي أمامي ورأيته...،"

-" لماذا لا نقول أنّك قتلتها؟؟ وعندما رآك بالجرم المشهود قتلته"

-" لكن لا يمكنني فعل السوء بجسد أختي"

-" وماذا سيمنعك؟؟"

- لماذا تتهمني بجرائم لم أرتكبها؟ لقد كنت أبحث عنها، لكي تكون بجانبي ونعيش مع بعضنا، لماذا سأفعل ذلك وقد فقدت والداي؟ وهي التي تبقت لي في هذه الحياة"

-"لو لم يشهد صديقك، لاتهمناك بقتلهم جميعا"

-" لكنني لم أفعل، وحتى ذلك المجرم، لو لم أقتله لقتلني"

-" لماذا لم تتدخل من البداية وتنقذها إن كانت تهمك لهذه الدرجة؟؟"

-" لقد تأخرت، رأيتها وهي تلفظ أخر أنفاسها...، يمكن أن اكون جبانا لمجاراة حيوان ينهش في فريسته بلا رحمة، لكنني كنت إنسانا بلا أمل أيضا عندما علمت أنها توفيت، لذا لا تسألني كيف استطعت بجسمي الضئيل هذا الاطاحة به"

-"هكذا اذن، لازلت حدثا، وسيكون جدك السيد ادوارد الوصي عليك في المحاكمة"

-" جدي ادوارد، هل سيكون حاضرا؟"

وأخيرا خبر يثلج القلب، جدي ادوارد لم أره من مدة، لقد اشتقت إليه وكنت أتمنى أن أراه في ظروف أحسن من هاتهن لابد

أنه حزين على امي كثيرا فهي تبقى ابنته الوحيدة والمدللة.

قلت بعد شرودي هذا:" سيدي...، هل سأذهب للسجن؟"

-" لا أعلم ماذا سيفعلون بك" ثم خاطب الشرطي الذي يقف خلف الباب

-" شرطي، يمكنك أخذه إلى مكانه، وقدم له بعض الطعام"

عدت إلى تلك الزنزانة وحيدا مرة أخرى، لم أكثرت لذلك الشرطي الذي يلح على أن أتمم طعامي، لم يمر عليّ كلام ذلك الرجل دون أن أفكر فيه.

-" مرحبا ياغبي..."

-" أنت مجددا، ماذا تريد مني؟؟ أخرج من رأسي أيها اللعين"

-" لابد أنك تمزح، كيف سأستطيع العيش في رأس غبي مثلك،"

-" لابد أنك خيال ولست حقيقة"

-" لكنني كظلك، أينما ذهبت ستجدني"

أمسكت رأسي علني أتخلص من صوته المزعج، لكنه لا يكف عن القهقهة والضحك، لم أشعر حتى أمسكت برقبته، أكاد أخنقه، لكنه لا يكف عن الابتسام.

الشرطي:" يا ولد، ماذا تفعل؟؟ هل جننت؟؟"

أدركت في هذه اللحظة انني بدوت كالمجنون فجلست على سريري.

لكن ذلك المسخ قال لي:" لقد قلت لك أنك غبي" ثم رحل
أحسست بنفس الدوار، كان صوت الصفير في أذاني حادا جدا، أمسك رأسي كأنه سينفجر.

مرت تلك الليلة وأنا أفكر فيما سيحل بي، وهل فعلا أستحق كل هذا؟ ذنبي هو أنني تعلقت بأبي وأمي بشدة، وأهملت الناس الاخرين، وعندما بدأت أتأقلم مع حياتي الجديدة إذ تقبلت صديقي، وأختي، وأدركت مكانتهما الكبيرة في حياتي.

لم أستطع النوم إلا سويعات قليلة، استيقظت منهكا جدا، لقلة نومي هذه الأيام، وعندما أنام لا تكاد الكوابيس تفارقني، لطالما عشقت الوحدة، لكن وحشتها هذه تخيفني، سأجن ان بقيت هنا لدقيقة...

جاء الشرطي لزنزانتي مرة أخرى.

-" هيا، جهز نفسك...، بعد دقيقة سأعود إليك"

-" إلى أين ستأخذني؟؟"

-" إلى التحقيق!"

ثم ظهر ذلك المسخ قائلا:" يا للمسكين...، الان عليك أن تجد طريقة لتبرأ نفسك وهذا ما أظنه مستحيلا "

-" هل تستهزء مني؟ اذهب ولا تزعجني"

الشرطي:" أيها الغلام، اخرج" قالها وهو يفتح الباب

أراه يبتسم إلي، ويلوح بيديه المتسختين، حاولت أن أقرأ شفتاه، لقد قال:" لا تنسى ما قلته لك"

أدخلني لنفس الغرفة التي كنت فيها البارحة، ولكن هذه المرة لم أصدق ما رأته عيناي، إنه نفس الرجل الذي كان يوصلني بسيارته، يرتدي معطفه المعتاد. قال لي:" لم أستطع أن أصدق أنك أنت من فعلت، تفضل اجلس"

-" أهذا... أأنت محقق؟؟"

-" لماذا لم تقل لي عن مشكلتك؟ لماذا هربت مني بسرعة ذلك اليوم؟ تبعتك وبحثت عنك كثيرا..."

ضرب على الطاولة بقوة ثم قال:" لكنني وصلت متأخرا، لقد رأيته عندما كان يضربك بشدة، كنت لأتدخل عندها لكنك تدخلت قبلي، أعلم أنك بريئ يا ماثيو، ولست كما يقول الناس، لكن علي أتبع الاجراءات وأن أستجوبك أيضا، هيا اسرد علي القصة من اولها، كيف اكتشفت موت والدتك، الى حادثة المستودع"

سردت عليه القصة بأكملها، لكن تبادر الى ذهني سؤال، توقفت قليلا لافكر ثم قلت:" موت والدتي؟ أابي... لازال على قيد الحياة"

-" وعد مني، أنني بعد محاكمتك سأخبرك بكل شيء، محاكمتك بعد يومين"

-" شكرا سيدي، سأنتظر..."

-" أتأسف لما حدث لك، يمكنك الذهاب"

عدت إلى الزنزانة وأنا لا أفهم شيئا مما حدث، أتساءل عن هذه الصدفة الغريبة، لو لم يكن محققا لما استطعت أن أخرج من هذا المأزق لوحدي، هل أتنفس الصعداء، أم أنني سأجد صعوبة في المحكمة، كنت أسأل نفسي ماذا حل بأبي، هل مازال حيا؟ لكنه إن كان حيا كان أخبرني المحقق، هل هذا امل جديد أم

ماذا؟ ام علي أن أتوقع الاسوأ؟ أنا متأكد أنني رأيت كيسين يعني جثتين.

-" يا لك من محظوظ، رغم أنك غبي؟ سخر القدر مني ثانية، فكان الشاهد على الجريمة محققا"

-" لكنك قتلتها حقا، وكنت ستقتلني، ولو لم يكن هناك شاهد فالحقيقة واضحة"

-" وأخذت عقابي منك أيها التافه، لكن هل أخذت انت عقابك؟"

-"عقابي؟؟"

-" ليس السجن بالتأكيد "

-"هل ستعاقبني أنت؟ "

-" لا، لكنني سأتأكد من ذلك"

-" نعم، عقابي ليس السجن، أنا أدرك هذا جيدا الان"

لاحظت أنني عندها تقبلت جانبي المظلم، ولم أعد أشعر بأي صداع في رأسي، وافقته في رأيه دون صد ولا مقاومة، لدينا العديد من النقاط المشتركة، اختبأ في الظلام كمفترس يترصد فريسته بصبر شديد، وأنا اختبأت في زي الطفل البريء، لا

تقلقي صوفيا لازلت عند الوعد لن يخرج ماثيو من هذه القصة إلا وقد نال عقابه.

قاطع المجنون شرودي قائلا:" لابد أن صوفي رأت وجه القاتل، أليس كذلك؟"

-فأجبته بنبرة شريرة، باردة خالية من المشاعر:" لكنك قتلتها أيها اللعين، سأنام... دعني وشأني"

****

يوم المحاكمة:

نزلت من السيارة بدون أصفاد كذلك، لقد كان طلب المحقق من البداية، إنه شخص مراع لنفسية الاخرين، لا يريدني أن أصدق أنني مجرم، كيف سأصدق والضحية يرافقني، كان هناك وفد كبير ومتجمهر من الصحفيين والمصورين، لابد أنهم كتبوا في عناوينهم، الصبي الذي قتل عائلته، أو ماثيو المجرم، أو القاتل الصغير، لا يهمني...، لاحظوا عدم وجود أصفاد على يداي، ولا كيس يغطي وجهي كباقي المجرمين.

حاولت الشرطة إيقافهم، لكنهم لم يكفوا عن أسئلتهم الغبية والمستفزة، فجأة ومن بعيد رأيت صديقي إيفان وهو يلوح بكلتا يديه وكان الى جانبه جدي ايدوارد، لم أعلم أنني اشتقت إليهما

الى هذا الحد، سررت كثيرا لذلك، لكن إيفان كان عليه أن يتواجد في الغرب الان، لكنه يفعل أي شيء لأجلي، إنه صديق وفي، وأنا محظوظ به.

كانت قاعة المحكمة قاعة كبيرة جدا، في مقدمتها مجلس القاضي ومستشاروه، ويوجد في جنبيها فريق المحامون، وفي الخلف توجد مقاعد الحضور المليئة، كانت ذات طابع خشبي فاتح اللون، ومكاني كان في الوسط، وبجانبي يحضرجدي الوصي علي، رغم أنني لم أستطع معانقته لكنني شعرت بالامان لوجوده، أما ذلك المسخ فكان يتجول في قاعة المحكمة لا يأبه لشيء.

بدأت الجلسة بصرخة الحاجب "محكمة"، وأمسك معالي القاضي بمطرقته وضرب على الطاولة معلنا بدوره صمت الحاضرين.

القاضي:" المحكمة ستناقش قضية من قضايا الاحداث، لذا أطلب من الحضور مغادرة القاعة، لأنها ستعقد في سرية"

شعرت بتوتر شديد، لماذا هذه الحساسية الكبيرة؟ عاد الدوار والصداع من جديد، أغمضت عيني عله يخف قليلا، لكنه لا يكف ولا تنقص حدته.

القاضي:" نعلن عن افتتاح الجلسة، الحدث ماثيو آزلبير، وليه القانوني آيزاك آزلبير، ولظروف غيابه، يتكلف الوصي القانوني السيد ادوارد روبرت...، ماثيوأنت متهم بقتل المسمى قيد حياته فيليب لوميز، أخبرنا لماذا أقدمت على جرمك هذا؟؟ "

- أجبت بتعتعة واضحة في صوتي " أختي راحت ضحية لاعتداء ذاك المتشرد، لم أتحمل ذلك المنظر، وانفعلت فكان ما كان"

-" أين تم الاعتداء على أختك؟"

-" في مستودع قديم في الحي المجاور، لكنني وجدتها متأخرا جدا"

-" لماذا هربتْ هناك؟"

-" لقد وجدتها..."، فبدأت في البكاء لأنني كنت متوترا جدا،

-" كف عن البكاء، واتمم كلامك"

-" لقد وجدتها مختبئة في قبو المنزل، لما حدث في منزلنا ليلتها، وعندما خرجنا خافت من الشرطة، وهربت"

-" ماذا حدث في منزلكم؟"

-" لقد قتل والداي، وهي كانت هناك، لقد وجدتها مختبئة في صندوق..."

قال القاضي متوجها بكلامه للمدعي العام:" حسنا...، المدعي العام هل من سؤال أو تدخل؟"

-"نعم سيدي الرئيس لدي تدخل، أيمكننا استدعاء الشاهد، الطبيب ستيفان بورفِل"

حضر الطبيب النفسي الذي كان يرافقني عندما كنت مصابا باكتئاب، لكنني تساءلت لماذا؟؟ وزاد التوتر والقلق، قلَّ أملي

من الخروج من ورطتي هذه، تسارعت دقات قلبي الذي كاد يخرج من مكانه.

القاضي" ادي القسم، وتفضل بتدخلك مشكورا"

-" أقسم أن أقول الحقيقة سيدي القاضي، كان ماثيو يتعالج عندي في العيادة منذ 3 سنوات واستمر علاجه عندي لمدة سنة، بسبب إصابته باكتئاب حاد"

-"هل هذا صحيح ماثيو؟"

-" نعم سيدي"

-" السيد بورفل، ما هو السبب في ذلك؟"

-" كان السبب تعلقه الكبير بوالديه وخصوصا بأمه، لقد كان تعلقا مرضيا جدا، كذلك كان انطوائيا ومنعزلا عن الاخرين وغيرته من أخته التي لم أفهم حدتها تلك، قبل أن تولد حتى، دخل الطفل ماثيو في حالة سيئة ومتقدمة"

-" هل من سؤال السيد محامي الدفاع؟"

-" نعم سيدي الرئيس؟"

-" تفضل..."

-" سيدي القاضي، أريد أن أطلب من الطبيب أن يعطينا المزيد من التفاصيل عن حالته النفسية، وهل استطاع تجاوز هذا؟"

-" لقد كان ماثيو طفلا متعلقا بأمه تعلقا شديدا، ليس كتعلق باقي الأطفال بأمهاتهم،وظن أن بمجيء أخته ربما يؤثر على علاقته الوطيدة بها، لهذا أغلق على نفسه لمدة طويلة في غرفته، إلى أن جلبوه للعيادة في حال مزرية، بعد أن أصابه فقر الدم أيضا، لكن في الحصص الاخيرة لاحظت عليه أنه بدأ يتقبل وجود أخته ويعاملها معاملة حسنة، حتى أنه استطاع تكوين صداقات"

-" شكرا سيدي، هل من سؤال اخر محامي الدفاع؟"

-" لا سيدي القاضي"

-القاضي يأمر الطبيب بالانصراف:" يمكنك الخروج من القاعة سيدي"

-" حاضر سيدي القاضي"

- القاضي" هل لديك ما تضيف يا ماثيو؟"

-"لقد كنت في عز الفقد يا سيدي..."

ثم بدأت بالبكاء بهيستيرية شديدة، احتشدت الأفكار داخل رأسي، كيف سأجيب، بأي نبرة، أو بالأحرى بأي لغة أكلمهم بها. طرق القاضي بمطرقته قائلا:" لماذا تبكي؟"

أجبته والدموع جارية:" أتعلم سيدي القاضي إلى ما أحتاج إليه الان، بعض الهدوء لأنام في حضن أمي؟ أتعلم أنه لا يهمني ماذا سيكون قراركم سيدي؟ لأنني فقدت أعز ما أملك ولم يتبقى لي أحد في هذه الحياة، إن كنت تريد أن تعدمني فهذا أفضل حل يمكن أن تقدم لي، نعم سيدي القاضي، كرهتها كرها شديدا، كنت أمقتها كثيرا، لكنني أقسم أنني لم أقترب لها بسوء يوما من الأيام، كنت أتجنبها ولا أكلمها، لكنني لم أعنفها قط. حتى بدأت أتقبل وجودها وبدأت احبها فهي في الاخير اختي، فمن واجبي أن

ادافع عنها...، لقد حرمني من أختي التي كانت آخر امل لي، والان لم يتبقى أحد..."

-القاضي" حسنا، محامي الدفاع هل من تدخل آخر؟"

-" نعم سيدي الرئيس، شهادة المحقق جوناثان البيرت"

-" مسموح، فليتفضل"

- السيد جوناثان بعد تأدية القسم"بالنسبة لي ردة فعل ماثيو طبيعية جدا، لأنني أنا من وجدته عند باب المستشفى يركض، ورأيت لهفته الشديدة للبحث عن أخته المفقودة،اخدته بسيارتي الى ذلك الزقاق، لكنني لم أكن مطمئنا، لذا تبعته إلى ذلك المستودع، لكنه كان كبيرا ومظلم لدرجة أنني تهت هناك، ولكنني عندما سمعت صرخة ماثيو توجهت إلى ناحية الصوت، فوجدت الضحية جاثيا على جسم هذا الصغير يبرحه ضربا، كنت متأهبا للتدخل حينها لكنه وقع متأثرا بالقطعة الحديدية التي كانت في عنقه.

سيدي القاضي أنا كنت في مسرح الجريمة و رأيت كل شيء وسمعت كل شيء، عندما مات الضحية، اقترب ماثيو من أخته يحكي لها قصة وهو يمسح على رأسها، كان ينعتها بساحرتي الصغيرة، وأملي"

-" شكرا لك سيد جوناثان، هل لك من تدخل آخر محامي الدفاع؟"

-" نعم سيدي الرئيس، رغم أن الكره والغيرة يتدفقان بين الاخوة، لكن الرابط بينهم يغلب، فلا يمكن أن يصل للقتل، ونحن لا ننظر لجريمة لا تهمنا، لماذا تسألون عن جريمة تعلمون أنه لم يرتكبها، لأن الدلائل العلمية تثبت صحة ذلك، وأن الطفلة صوفي تعرضت للعنف الجنسي قبل أن تموت خنقا، هذا من جهة.

من جهة أخرى، كيف تبرؤون الضحية من فعلته النكراء، علما أنه كان متهما بقضية اغتصاب سابقة وحكم عليه بالسجن لثمانية سنوات، ثم أطلق سراحه، يعني أن موكلي بريء من قتل أخته براءة لا تناقش، أما بالنسبة للضحية فيليب فموكلي كان في دائرة الخطر أيضا، كما قال السيد جوناثان، قد تعرض موكلي للضرب وأسقطه على رأسه، ألم يكن معرضا للاغتصاب أيضا، لولا تدخله الذي أقول عنه شجاع، نعم شجاع، ولو لم يسطع إنقاذ أخته لكنه استطاع إنقاذ نفسه من ذلك المجرم، نلتمس منكم سيدي، أن تأخذوا حالته النفسية أنداك بعين الاعتبار، ماثيو لم يرتكب جرما يعاقب عليه، بل دافع على نفسه فحسب، ولمجلسكم الموقر واسع النظر"

-" هل لديك ما تضيف ماثيو؟"

-" لا، سيدي القاضي، لم يعد لدي ما أضيفه "

-" الوصي القانوني، السيد روبرت، أنت جد المتهم، كيف كان تعامل ماثيو، هل كان يبدي تصرفات عدائية؟"

-" لا سيدي، فماثيو كان طفلا هادئا ومحبوبا، وأيضا هو طفل موهوب يهوى الرسم وكتابة الشعر، ولديه صديق عزيز عليه اسمه إيفان، أنا اسف يا ماثيو لما حصل لك، لابد أنك تتألم من داخلك، سيدي القاضي ارأف بحكمك عليه، فقد كان في موقف ضعف، وكان معرضا للخطر"

بعدها قال القاضي" المحكمة ستنتقل للتشاور للنطق الحكم"

وقف المحامون، وغادر القاضي والمستشارين، عم السكون أرجاء المحكمة، رأيت ذلك اللعين يتربص منتظرا، مرت الدقائق كأنها سنوات، متى ستنتهي هذه التشاورات؟ لم أعد أستطيع الوقوف على رجلاي المرتجفتان، لكن جدي مسك يدي وحاول طمأنتي، ادركت أنه يريد معانقتي بشدة، لكننا في المحكمة، وأنا لازلت متهما، وأخيرا حضر القاضي، وجلس على كرسيه، وأمر جميع الحاضرين بالوقوف، لإعلان قرار المحكمة.

-" قررت محكمتنا الموقرة في هذه القضية، الحكم على الحدث ماثيو آزلبير بالبراءة مع مراقبة سلوكه من قبل مختصين نفسيين، حتى نتأكد من سلامته النفسية"

لابد أنني لم أسمع جيدا، هل أنا في حلم، ثم أمسك بي جدي وعانقني بقوة وقال لي:" كنت أعلم بأنك ستحكم ببراءة، مبروك، فرحت لأجلك يا بني، فأنت ما تبقى من ابنتي نتالي، هيا لنخرج من هنا "

ثم تقبلت التهاني من المحامي الذي دافع عني، وشكرته كثيرا.

سألني السيد جوناثان أنا وجدي:" سأستضيفكم في منزلي، فأرجوكم لا ترفضو طلبي، أعلم أنكم لا تملكون أحدا هنا"

فما كان مني إلا أن قلت له:" لا أعلم ماذا أقول لك، لطالما ساعدتني شكرا"

-" لا يهم، المهم أن تكون بخير"

بعد خروجنا جميعا من القاعة هرول إلينا إيفان من بعيد، فرحت كثيرا لرؤيته،عانقني بشدة قائلا:" فرحت كثيرا، لن تعلم كم فرحت، ستعود يا صديقي،"

ثم قال السيد جوناثان:" أهو صديقك المقرب؟؟"

أنا:" نعم إنه إيفان" ثم أضفت متسائلا:" إيفان أين السيدة سيلا؟"

حنى رأسه وقال بنبرة صوت منخفضة:" رحل كل شيء يا صديقي"

-" كيف...؟"

-"لا أعلم يا ماثيو، ذهبت دون أن تقول شيء..."

-" غريب..."

ذهبنا لمنزل السيد جوناثان، كان بيتا متواضعا في وسط المدينة، أثاثه قليل لكنه جميل رغم بساطته، كان يعيش وحيدا، حكى لنا تلك الليلة عن زوجته ابنته المتوفية.

فاكتشفت حقا أن في داخل كل شخص، يقبع شخص مقموع، لا يحبذ كل منا أن يظهر شخصيته الضعيفة، ودائما ما نحاول اخفاءها عن الاخرين، في كيان كل واحد منا هناك شر، هناك وجه آخر لا يظهر إلا للضرورة أو يظهر عندما ينال منك...

الفصل السابع: البحث في القضية

لم يتسنى لي أن أعلن حدادا على فقد عائلتي، فالصدمات توالت، وكان السقوط مؤلما جدا، وايفان يحتاجني الان، أكثر من أي وقت آخر، سأكون قويا لأجله وأحمل ما تبقى مني من حطام، لأرمم به حطام صديقي.

قبل أسبوع من موعد محاكمتي، تم حجز منزل إيفان الجميل، لكن لم يكن يهم فهو وأمه كانا ينويان السفر إلى الغرب، والاستقرار هناك، لكن أمه مختفية الان، ولا يعلم أين ذهبت من دونه، لا يتقبل صديقي فكرة أن كلا والديه اختفيا، ولم يأبها لابنهما الذي بقي دون مأوى ولا مسكن، كان يبيت في بيت جارتهم التي شفقت على حاله، وأصرت عليه أن يبقى معها، إلى أن حضر لموعد المحكمة، كان حزينا جدا لدرجة الاكتئاب، قال لي:" الفرق بيني وبينك يا ماثيو، هو أن والديك لم يختارا تركك وحيدا، بل كان الموت أقوى من رغبتهما في البقاء بجانبك، أما أنا فقد تركاني دون أن يسألهما ضميرهما عن حالي"

-" لا تقل ذلك صديقي، لا نعلم سبب رحيلهما، يمكن أن السبب كان أقوى من الموت حتى"

-" عليه أن يكون أقوى، وإلا لن أسامحهما ما حييت"

-" أتعلم ما الفرق بيني وبينك حقا؟ لازال لديك أمل في إيجادهما أما أنا فقد رحلا دون رجعة"

-" متأسف جدا يا ماثيو لم تسمح لي الظروف أن أواسي جروحك وآلامك كباقي الأصدقاء"

-" لا عليك صديقي سأعتاد الوضع، لكن لن أرتاح قبل أن أجد ذلك المجرم الذي صير حياتي خراب"

-" وأنا معك يا أخي"

حاولت أن أهدئ من روعه، لقد كان يبكي وينادي أخي، ولا يكف عن ذلك، حاولت مرارا أن أجد لوالديه عذرا، لكن المرء لا عذر له في التخلي عن فلذة كبده هكذا، لذا تدخل جدي قائلا:" اعتبرا نفسيكما ابنائي من الان فصاعدا، عندما ننتهي من هنا سندهب جميعا الى القرية"

دخل علينا السيد جوناثان، ووجد إيفان في حالة مزرية، فسردت عليه قصته لكن كان للسيد رأي آخر.

-" إيفان، أريد أن أسألك سؤال، هل بإمكاني ذلك؟"

-" نعم سيدي تفضل"

-" هل كان لوالديك صلة بأسرة آزلبير؟"

-" الصلة الوحيدة هي نحن، لماذا؟"

-" نعم أعلم، لكن هل كانت الاسرتان تتعارفا؟"

-" لا سيدي، ماثيو لم يخبر والديه بصداقتنا إلا قبل الجريمة بأيام فقط"

-"ماثيو، هل هذا صحيح؟"

-" نعم، لم تكن علاقتي بوالدي جيدة في فترة من الفترات، وعندما بدأت بالتحسن، رحلوا"

-" لا تحزن،لازال أمامك الطريق طويل، وستواجهك مصاعب أكبر"

-" وهل هناك مصيبة أكبر من فقدان أعز الناس"

-" نعم يا ماثيو افهم شعورك جيدا..."، ثم أضاف:" قل لي ما اسم البنك الذي كان يشتغل فيه والدك كمحاسب؟"

-" البنك المركزي، الذي يقع شمال المدينة"

توجه السيد جوناثان لايفان بالقول:" هل كان والدك مديونا للبنك؟"

-" نعم، لكن لا أعلم أي بنك، لا أتدخل في عمل أبي"

-" ما اسم والدك؟"

-" اسمه ادريان لينكل"

-" حسنا، سأبحث في بعض الأمور"

ماذا يقصد؟ هل لوالدي إيفان دخل في هذه الجريمة؟ لقد استنتج من اختفاء والدي إيفان المفاجئ، أن بالإمكان أن تكون لديهما يد في مقتل والداي.

قال ايفان بقلق:" ماثيو، أعلم أن أبي شخص عنيف جدا، لكن ليس لدرجة أن يتسبب في قتل أحدهم، لا تقل أنك صدقته"

-"غياب أمك بالخصوص غير مفسر، كيف لها أن تترك ابنها الوحيد وتختفي؟ إيفان، منذ صغري تعلمت ألا أثق في أحد، وأنا أثق فيك أنت وليس والديك"

-" أرجوك، يا ماثيو لا تصدقه، لقد كانت أمي معنا تلك الليلة"

-" في هذه الجريمة كل شيء ممكن، دعنا حتى نرى استنتاجات السيد جوناثان"

-" ماثيو...، لا أستطيع أن اصدق أن غياب والداي له علاقة بالجريمة "

ثم خرجت من الغرفة وتركته وحيدا، اختنقت كثيرا، لا يمكنني أن أتحمل صدمة أخرى، ذهبت إلى الشرفة أتأمل في هذه الحياة الغريبة التي إذا ما أعطتنا كل شيء، تأخذ كل شيء، وما أدراني بهذه الطريق الطويل، لعلها لا زالت تنتظرني بورودها الشائكة، ومطباتها الوعرة، وأنا هناك وافاني السيد جوناثان ليخبرني بما وعدني.

استفتح الحديث قائلا:" لابد أن هذا المنظر قد نال اعجابك، أراك شاردا"

-" لقد كنت أفكر فيما يمكن أن تقوله لي، ماذا حدث؟ الى أين وصلت اطوار التحقيق"

-"نعم...، لم أنسى أن علي أن أخبرك، لكن ماذا سأقول؟ لم نجد جثة أبيك، وفي نفس الوقت لا يوجد أثر له، مختف عن الانظار"

وقع كلامه علي كالصاعقة:" ماذا...؟ كيف ذلك...؟ كانا كيسين يعني جثتين"

-"لحسن الحظ أنك لم ترى جثة أمك...، لقد كانت اشلاءا، لكن بعد التشريح، تأكدنا أنها تعود لأمك "

كان كلامه كسيف غرس في قلبي، ما كان مني إلا أن قلت:"من عساه يفعل بها هذا...؟ لقد كانت انسانة جميلة ومحبوبة، لم يكتفي بقتلها، من عساه يفعل هذا؟"

-"ماثيو، انظر الي، اريد منك أن تكون قويا..."

قاطعته قائلا بغضب:" كيف؟ كيف سأكون قويا؟ هيا قلي...، من عساه يفعل هذا بأمي؟ "

-أمسك بي السيد جوناثان بكلتا يديه ثم قال:"حقا عليك أن تكون قويا، علينا أن نجد القاتل، وعلينا أن نجد أباك أيضا، فهناك فرضيتان إما أنه القاتل، إما أن القاتل اختطفه"

" اتريد حقا أن أصدق الان أن أبي الذي كرس حياته فقط من اجل أن يرى وجه أمي باسما طوال الوقت؟ أنه من فعل بها هذا، اتريد أن أصدق أن أبي من قتل أمي؟"

" لذا عليك أن تكون قويا، فكل شيئ ممكن، حتى اختفاء ادريان وسيلا ليس طبيعيا"

ثم ذهب وتركني هائما في أفكاري، عن أبي المختفي عن أمي الضحية، تذكرت أختي التي ماتت أمامي، كل هذا حدث بلحظة واحدة، ماذا عساي أن أفعل؟ فبقيت الليل بأكمله وأنا في مكاني

حتى نمت على كرسي هناك، لقد كان أول يوم أنام فيه ولا أرى سوى وجه أمي الباسم ينظر إلي.

استيقظت في الصباح على أثير صوت السيد جوناثان:" ماثيو، استيقظ..."

أجبته بعينين نعسانتان:" حسنا سيدي، هل من جديد في القضية؟"

-"اذهب لافان وجدك وادعهما للفطور"

طرقت باب الغرفة طرقا خفيفا، ثم ناديتهما بهدوء دون أن أرفع صوتي

-" هيا...، الفطور جاهز"

ثم قال إيفان:" ألست غاضبا مني؟"

-" الحق بي أيها الابله، يا لك من غبي"

قال بفرح:" إذن لست غاضبا، سأغسل وجهي وأوافيك حالا"

-" إيفان، لن تتغير! هيا بسرعة"

كانت المائدة جاهزة، وعليها فطور شهي، لكنه لن يعوضني عن فطور أمي اللذيذ، كان إيفان سعيدا، لقد تكلمت معه بقسوة

البارحة لكنني لم أستطيع التحكم في مشاعري، في بعض الأحيان لا أستطيع كبح غضبي وحقدي، وبينما أنا أتناول فطوري حظر ذلك اللعين.

-" ألا تسأل نفسك إذا ما كان حقا لوالدي هذا الصبي علاقة بالأمر؟ ماذا ستفعل حينها؟"

-" لا تزعجني" قلتها بصوت سمعه إيفان

فتساءل قائلا:" ماذا قلت؟"

-" لا يا هذا، كنت أفكر فقط "

-" حسبتك تكلمني"

-ثم قال السيد جوناثان:" ماثيو، أنا ذاهب للعمل حين أعود سنتحدث، إنهما في رعايتك العم إدوارد، اعتبر المنزل منزلك"

فأجابه جدي:"لن أنسى لك صنيعك هذا ما حييت"

بعدها ترقبته من الشرفة، حتى ركب سيارته وذهب، خاطبت إيفان بصوت خافت كي لا يسمعني جدي:"إيفان سأذهب إلى منزلي"

-" سأذهب معك"

-"إيفان...، وجدي من سيهتم به إلى أن أعود؟"

-" فهمت، اذهب ولكن كن حذرا"

كانت المسافة طويلة من بيت السيد جوناثان إلى منزلنا، لكنني أخترت أن أتمشى حتى أصل، ولم تكن لدي نقود لسيارة الأجرة، وأنا أقترب وقلبي يحن لتلك الأيام الخوالي، وصلت أمام المنزل، ووقفت متأملا في تضاريسه، أرى عليه علامات الحزن بارزة، يبدو على الدار الشوق لأهلها الذين عمروها سنينا، كان الباب موصدا ولا أستطيع فتحه.

-" عرفت أنك ستأتي إلى هنا، ايها الشقي" فاجأني بصوته

-" السيد جوناثان؟"

-"لقد كنت هنا أبحث مع الجيران للمرة الثانية، هيا لندخل، المفاتيح معي"

-" لست مستعدا كفاية، لكن عليّ ذلك"

دخلنا إلى المنزل، كأنني لم أعرفه من قبل ، أحقا هذا هو البيت الذي كان يحتوينا، خيمت فيه خيوط العنكبوت، أصبح ذو طابع قديم، لا حياة فيه.

-" ماثيو لنجلس هنا"

-" حسنا، أخبرني ماذا وجدت"

-" لقد كان أبوك هو المكلف بملف شركة لينكل للأثاث"

-" حقا؟؟"

-" نعم، تراكمت الديون على السيد لينكل، لذا حجزوا المنزل، وأسهم الشركة أيضا"

-" لكن ماذا سيجعله يعادي أبي ليقتله"

-" الشيكات بدون رصيد، تم التبليغ على السيد لينكل إلى البنك من طرف الشركات التي تتعامل معها الشركة، لقد كان والدك المكلف بالملف "

-" لا أظنه سببا كافيا!"

-" بل هو كذلك، إذن فأين هو السيد أدريان وزوجته، سنطابق بصمات المجرم، مع بصمات السيد أدريان"

ثم قلت متحسرا:" أتمنى ألا تكون متطابقة"

-" نعم! إيفان لن يتحمل ذلك، أريد أن أعلمك بشيئ آخر، لقد وجدنا بصمتين مختلفتين غير التي لوالديك"

-" يعني أن هناك شخصين"

-"نعم، و وجدنا أيضا دماء ثلاثة أشخاص ولم نجد إلا جثة واحدة"

-"دماء أمي، ومن آخر"

-"يبدو أن أباك من كان مربوطا في ذلك الكرسي المتأرجح، وهذا ما يفند فرضية أن أباك هو القاتل، يعني أنه قد اختطف"

-" في حياتهما كانا زوجين مسالمين، لم يؤديا أحدا قط"

عم الهدوء ارجاء المنزل كل منا تدور في ذهنه الكثير من الافكار والفرضيات، ثم فجأة قال المحقق:" لنذهب للبنك الذي كان يشتغل فيه والدك"

-" لماذا؟؟"

-" ستعلم ذلك لاحقا"

ذهبنا إلى هناك، لأول مرة أدخل ذلك البنك، استقبلتنا سيدة في مقتبل عمرها، ثم سألها السيد جوناثان إن كان بالإمكان أن تمده بعنوان السيد إيزاك آزلبير، فلم ترفض طلبه ذاك، لم أكن أعلم ما فائدة هذا السؤال، إلى حين أن أشهر بطاقة عمله في الشرطة.

قال لها:" قبل موت آيزاك، هل جاء أحدهم إلى هنا وسأل عن عنوان السيد إيزاك؟"

-" نعم سيدي، أتذكر أن أحد زبائننا كان يريد مقابلة السيد إيزاك، ولم يجده فطلب مني عنوان منزله فأعطيته إياه"

-" ما اسم هذا الزبون؟"

-" لا يمكنني أن أشهر خصوصيات الزبائن"

-" أولا أنا محقق، ثانيا سألتك عن السيد آزلبير فأجبتني بسرعة، هل الموظفين هنا ليس لديهم خصوصية؟ ثالثا أنا أحقق في جريمة قتل، يعني من واجبك التعاون معنا"

." حسنا، كان اسمه السيد أدريان لينكل، صاحب شركة لينكل للاثاث"

-"ألم تعلمي منه لماذا كان يسأل عن السيد آزلبير؟"

-" السيد آزلبير كان مكلفا بملف السيد لينكل، كان يريد منه أن يؤجل موعد الحجز لفترة حتى يجد حلا"

-" حسنا، شكرا لتعاونك".

مرت أيام قليلة، انتظرنا فيها نتيجة تحاليل الدم والبصمات، إلى أن استيقظت ذلك اليوم والسيد جوناثان يوقظني بصوت هادئ، أفقت من نومي وذهبنا للمطبخ، وجلسنا على طاولة الاكل، وتركنا إيفان وجدي نائمين في الغرفة، أخبرني حينها أن التحاليل تثبت أن السيد لينكل وزوجته كانا في المنزل ليلتها.

تفاجأت من قوله ذاك، كانت الصدمة أقوى من أن أستوعب كلامه، فقلت كلاما مسيئا جدا، لعل غليلي يشفى، سألته إن كان قد وجد مكانهما، لكنه أجاب بالنفي، فأصبحت كالثور الهائج، أصريت عليه أن يجدهما لينالا عقابا قاسيا على جريمتهما النكراء،ثم سمعنا صوت خطوات إيفان المسرعة ، فعلمت أن إيفان قد سمع كلامنا، فتبعه السيد جوناثان، في حين بقيت في مكاني، لكي لا أرى وجهه فأفكر بأن والديه من دمرا حياتي. بعدها ناداني جوناثان مستنجدا حتى أن جدي أفاق من نومه.

-" ماثيو، ماثيو، إيفان سيلقي نفسه من سطح العمارة، أسرع يا ماثيو،"

أسرعنا إلى السطح، كان هدفي أن أنقذ صديقي، ألهت في الدرج ولكنني لا آبه، يجب أن أصل رغم المسافة، تعب السيد

جوناثان، وأمرني بأن أسرع إلى أن يلحق بي، وصلت ووجدت إيفان على حافة السقوط بينه وبين الموت إلا خطوة.

-" إيفان توقف أرجوك، أرجوك لا تفعل هذا"

أجابني والدموع تتدفق من عينيه:" ماثيو، سامحني أرجوك، لم يكن لي علم صدقني، لم أكن أعرف"

-" وأنا لا ألومك، يا صديقي...، أرجوك لا تفعل بي هذا، أترجاك..."

-" لقد سمعت ما قلت للسيد جوناثان، قلت له كيف لي أن أتعامل مع إيفان، كيف لنا أن نصبح أصدقاء؟ وأنا لا أستطيع أن أحمل كل هذا في قلبي، ماثيو دعني أخلص نفسي، وأخلصك من هذا الوجع الذي تحمله في قلبك"

-" لكنك لا تعرف كم أحتاج إليك"، اقتربت إليه بحذر، مقدما له يدي:" لا تسئ فهمي، ولا تفعل شيئا يؤديك، هيا أمسك بيدي، ولا تتهور، أنا أحتاجك كثيرا فأنت لست صديقي فحسب أنت سندي وعضدي الان، لا أحد غيرك يمكنه أن يفهمني، وأن يشعر بما أشعره، أعلم أنني قاس شيئا ما لكنني احتاجك"

لحق بي السيد جوناثان وجدي.

أضاف جدي قائلا:" إيفان بني توقف، لا تتهور"

انزلقت رجلاه، فأسرعت لأمسك بيده.

-" يا أخي ماذا فعلت أيها الاحمق؟؟"

-" أرجوك يا ماثيو، أفلتني دعني أستريح"

سحبناه إلى بر الأمان، ثم انتفضت من جانبه وقمت غاضبا

-" روحك رخيصة عليك لهذه الدرجة، صحيح أنا انفعلت، لكنني لا أوجه لك اللوم"

أجابني السيد جوناثان:" ماثيو، اهدئ لقد سلم إيفان هذه المرة، لن يعاود الكرة"

بعدها قال إيفان بصوت باكٍ:" ماثيو أنا آسف..."

ثم ذهبت إليه أعانقه، وأواسيه

-" لا تعاود الكرة، ألا يكفيك كم فقدت من الناس إلى الان؟ لم يشفى جرحي بعد، فلتعلم أن بعد موت عائلتي رزقت بأخ جديد، وهو أنت، نحن إخوة لم نعد أصدقاء فقط، أفهمت أيها الابله"

هذه الحياة غريبة، فعلا، لم أكن لأتقبل شخصا غريبا ليكون قريبا مني، لكن إيفان، جعل مني شخصا يتقبل كلمة أخي

ويستسيغها، بينما لم أفعل مع صوفيا التي كانت أختي فعلا، هل تعمدت هذه الحياة أن تأخذ مني كل شيء، وتعوضني بإيفان،لا أعلم، لكنني لن أسمح بأن يصيبه أي مكروه.

ثم جاء الخبيث ووقف نصب عيني يكلمني بأفكاره السوداوية:"أنت غبي، لقد كان بإمكانك أن تنتقم لوالديك، وتحرم المجرمين لذة الانتصار"

-" كيف...؟"

-" كان عليك أن تتركه يسقط، وتنتقم لأسرتك"

-" لا أضحي به لأجل جرم لم يرتكبه، عليّ أن أجد المجرمين الحقيقين، أتعلم...؟ سأجمع ما بي من يأس وحزن وغضب وأفرغه فيهما، كما تقطعت أوصال أمي سأقطعهم إربا إربا، فقط انتظر وسترى ما سيفعله خلف آزلبير"

-" وأنا سأكون من الصابرين، لأرى ما ستفعله"

الفصل الثامن: حياة في الغرب

مر احد عشر شهرا على الواقعة الاليمة التي فقدت فيها أعز ما أملك، وأنا الان أجلس في المكان المفضل لأمي، كباقي الأيام التي أمضيتها في الغرب مع جدي، كنت أتخيلها في ريعان شبابها، وهي تغني بصوتها العذب على ضفة النهر، كما وصفها لي أبي ذات يوم، كيف سأبرئ هذا الجرح الذي لن يلتم؟ كيف سأعود ماثيو الذي كان يحب الحياة تحت جناحي والديه؟ كان خرير الماء يتردد في اذناي كأنه سمفونية حزينة، أتذكر ابتسامة الساحرة الصغيرة، لقد اشتقت إليهم جميعا، لكن يا حسرتاه ذهبوا من دون رجعة، ودون وداع.

حتى دراستي سأتممها هنا، لكن هذه المرة أعرف لماذا أدرس؟ أدرس لألتحق بأكاديمية الشرطة في المدينة الغربية، وأدرس علم الاجرام، لكي أفك خيوط هذه الجريمة التي راح ضحيتها والداي، عليّ ألا أنسى الوعد الذي قطعته على أختي وهي تحتضر، سأنتقم لي ولها...

-" مرحبا ماثيو..."

-" إيفان، مرحبا، كيف حالك؟"

-" بخير جدا، لقد كان اصطحابي إلى هذه القرية فكرة جيدة"

-" نعم، جوها منعش وأناسها طيبون"

-" تعال معي فجدك يناديك"

-" سألحق بك..."

جدي، رجل كبير في السن، لكن روحه لازالت شابة، يذكرني بأمي الراحلة، وهو أيضا كان متأثرا بموتها، كانت صورتها لا تفارقه، كان يحافظ على جميع ذكرياتها منذ الصغر.

لكن قبل أن أبرح مكاني ظهر الخبيث لوميز من العدم كعادته يأُزني أزا.

-" مرحبا ماثيو..."

-" أنت مجددا، ماذا تريد؟"

-" كأنك نسيت، نسيت كل شيء، أجبني يا سيد ماثيو هل وجدت من أسال الدم وهرب؟"

-" وهل تحسب المقتول ينسى من قتله؟"

-" لا، لكنه ينتقم من قاتله، حتى الميت إذا مات، يأتي بصفة شبح ليثأر"

-" لهذا تلاحقني أينما ذهبت وارتحلت؟؟"

-" نعم، سأحرص على عقابك بيدي هتان، لكنك الان انت الشبح الذي عليه أن يفكر في الثأر"

وإذا بي أرى إيفان يلوح لي بكلتا يده

-" ماذا يريد هذا الاهوج؟"

-" لا تتدخل في الشأن الذي بيني وبين صديقي"

ذهبت إليه، سائلا إياه عن ماذا يريد؟ فأخبرني أن السيد جوناثان يريد ملاقاتي، تعجبت لهذا، كيف له أن يقطع مسافة طويلة فقط ليزورني.

-" مرحبا سيد جوناثان، آسف على تأخري"

-" لا يهم ماثيو، جئت هنا لغرضين، لأطمئن على حالكما، وأعلمكما بمستجدات القضية، وخصوصا أنت إيفان، الامر يهمك أنت أكثر"

-" هل هما والداي؟ أين كانا؟ وكيف حالهما؟"

-" لا أُخفي عنك يا إيفان، وجدنا والدك مقتولا في منزل يقع بضواحي المدينة"

-" ماذا؟ أبي...، منذ متى؟ متى حدث هذا؟"

-" يؤكد الطب الشرعي على أنه مات منذ احد عشر شهرا، وجد مدفونا في حديقة المنزل"

قلت متعجبا ومتألما في نفس الوقت:" يعني أنه مات تزامنا مع وفاة والدتي"

فأجتبني السيد جوناثان" هذا ما ذهبنا إليه أيضا، القضية أكبر مما كنا نظن، يا ماثيو"

وبعدها سقط إيفان أرضا على ركبتيه مصدوما، غير مصدق لما حصل، على ما يبدو أن لعنة الموت أصابت كلينا، ثم تحدث جدي:" سيدي، هل من مشتبه في قضية مقتله؟"

-" لحد الان لم نجد جثة السيد آيزاك، ولم نتوصل بأي خبر يفيد مكان السيدة سيلا"

-" هل تتهمون أبي في القضية؟"

-" وأين هو الان؟ لم نجد جثته في المنزل، وليس له أثر"

-" والسيدة سيلا؟؟"

-" لذا جئت إلى هنا لأسال إيفان بعض الاسئلة؟"

بعد أن خرج إيفان من هول الصدمة التي أصابته، وتحسنت حاله قليلا وصار بإمكانه الكلام، بدأ السيد جوناثان بطرح الاسئلة.

" هل السيدة سيلا تقدمت بدعوة طلاق؟"

أجابه إيفان بصوت خافت لا طاقة فيه على غيرعادته" نعم، سيدي، وكنا نخطط لكي نستقر في الغرب أيضا، في قرية ليست بالبعيدة عن هنا"

-" كم تبعد على هنا؟"

-" لا أعلم كم تبعد عن هذه القرية، لكنها قريبة من المدينة، انتظر لدي في حقيبتي خريطة، عليها موقع البلدة"

-" نعم هاتها، ستفيدني"

بعد هذا الحوارذهب السيد جوناثان إلى قرية مجاورة لقريتنا، على أمل أن يجد شيئا يفيد القضية هناك، لكن ما كان يهمني هو حال إيفان الذي ازداد سوءا، لكنه كان قد خرج من المنزل ونحن نودع المحقق، لذا سألت جدي عن وجهة إيفان، وأين ألف أن يختلي بنفسه، فأرشدني إلى الساقية، فذهبت راكضا

عندما وصلت هناك وجدته، يجلس كئيبا حزينا يملأ الساقية ماءا من دموعه،فعانقته وربت على كتفيه، عله يهدأ قليلا.

قال لي:" لقد اتهمتم أبي بهذه الجريمة، في حين أنه أصابه ما أصاب أمك"

-" كيف لنا أن نعرف؟ القانون لا يتهم أحدا دون أدلة تدينه، فأبي كان ولازال متهما أيضا، لغز هذه الجريمة غير مفهوم"

-" كيف صبرت؟ كيف لك أن تصبر على فقدانك يا ماثيو، أرجوك أخبرني بسرك علني أهدأ"

-" لست صابرا، بل أنا أجهز نفسي، مؤمنا بأن هذه القضية لن يحلها غيري"

-" كيف؟"

-" سأتمم دراستي وأصبح محققا، وستكون معي في هذا، هيا امسح دموعك، سيكون انتقامنا أشد"

-" صدقني يا ماثيو، لم أرى هذه العين الحمراء منك، منذ زمن بعيد"

-" المهم أن نجد من حول حياتنا إلى جحيم"

-" أنا معك، في كل خطوة تخطوها"

ظهر المسخ ثانية وهذه المرة فقط ليهزأ مني

-" تعتمد على أبله، على ماذا تنوي يا ماثيو؟"

لكنني لم اعره اهتماما وتوجهت بحديثي لايفان" إيفان، هيا لنذهب، وامسح دموعك، سننسى الالم مع مرور الوقت"

ضحك صديقي تلك الضحكة البريئة التي تذكرني بأختي الصغيرة، أشتاق إليها كثيرا، لم تفارقني صورتها الملائكية، صغيرة ماتت بوحشية، فما الذنب الذي أدينت به، لتعدم طفولتها بطريقة بشعة.

قاطع إيفان شرودي قائلا:" ماثيو، دعنا نجوب أرجاء هذه القرية"

-" الظاهر أنك تنسى الالم بسرعة، هل هي مغامرة جديدة أم ماذا؟"

-" لا فقط اريد أن أشغل نفسي بفعل شيء...، قل لي، هل تعرف ركوب الخيل؟"

-" لم أجرب قط، لكن أعشقهم"

-" لقد أعجبني الفرس الذي في الاسطبل، ذاك الرمادي المنقط، دعنا نذهب إلى الجد عله يسمح لنا بذلك"

-" هيا بنا، وأنا سأختار الحصان ناصع السواد كالليل"

-" اسمه ليل، أسماه جدك بهذا الاسم، أما فرسي فاسمها كلوي"

قلت له بحماس كأن لم يصبنا ضنك قبل قليل:" هيا لنسرع، سأتعلم بسرعة أعدك"

ذهبنا إلى جدي الحبيب، فما كان منه إلا أن ذهب معنا إلى الاسطبل، لنختار الخيل التي تروق لنا ونروق لها، فالخيل حيوانات صديقة الانسان وحساسة له، تختار صاحبها كما نختار نحن اصدقاءنا، نصحني جدي ألا أمتطي ليل لعناده، وبحكم خبرتي القليلة، وافقت على ما يختاره لي جدي، فامتطيت بصعوبة بالغة الحصان تِدي وهو حصان أسود أيضا لكن ليس فيه بريق، وعلى صهوة الحصان جبنا القرية كالأمراء، أحسست بنخوة كبيرة، كان تدي مطيعا أحببته جدا، وكان أهل القرية يلقون علينا التحية من حقولهم، فتعالت ضحكاتي أنا وإيفان، كأن الهم قد محي من قلوبنا الغلف.

اقترح إيفان أن نجوب الغابة، هناك نستنشق هواءا منعشا، وأتعلم جيدا ركوب الخيل، وكيفية التواصل معها، فوافقت دون تفكير.

وعندما توغلنا داخل الغابة سحرتني بجمالها الاخاد وتلك المناظر، لقد أمضيت أحد عشر شهرا هنا ولم أكن ابرح مكان أمي، وتغاضيت عن كل هذا الجمال.

خاطبت إيفان بصوت طفولي، وعينان متلألأتان" غابة جميلة...، انظر إنه شلال، دعنا نسبح أرجوك"

-" ماثيو هل تقرأ أفكاري؟؟"

ربطنا الاحصنة على جدعي الشجر، ودخلنا الماء كأننا برمائيان، ذهبنا ولم نعد، ذهبنا تحت الشلال وصبيبه علينا يضفي متعة أكثر، كانت المياه دافئة، لذا بقينا مطولا داخل الشلال، وعلى حين غرة سمعنا مناديا يناديا ذو صوت ناعم.

-" مرحبا، يبدو أنكما غريبين عن هنا ولا تعلمان أن البحيرة بها تماسيح"

-" تماسيح؟ إيفان ويحك هل تريد التخلص مني"

هرولنا مسرعين من الشلال، ارتدينا ملابسنا بسرعة، وأخدنا بلجام أحصنتنا، وقلنا في نفس الوقت:" مرحبا"، فضحكت الفتاة.

-" كنت أمزح فقط، هههههه"

فأجبتها غاضبا:" من أنت يا هذه؟ أنعرفك مسبقا؟ أم كان المزاح بيننا عادة؟ هيا اغربي عن وجهي"

ثم قاطعني إيفان:" لا تغضب يا أخي، اعذريه على كلامه...، لكن ماذا تفعلين هنا وحدك؟"

-" لا عليك، أنا آسفة لأنني أخفتكما، أنا دائما ما أتجول مع حصاني هيل في هذه الغابة"

قلت وأنا مستعجل:" نحن آسفان أيضا، إيفان دعنا نذهب"

ثم سبقته ليلحق بي بعد حين

-"لماذا تأخرت...؟"

-" أنت... لماذا تصرفت مع الفتاة بتلك الطريقة يا عديم الإحساس"

-" بدأت في الثرثرة مجددا، ألم ترى الوقاحة التي تعاملت معنا بها؟ أخرجتنا من الماء كالسمك المقلي، نهرول، ونركض كالحمقى، ارتديت ملابسي بالمقلوب حتى"

-" كنت أعلم أن الشلال لا تعيش فيه التماسيح أنت الذي خفت كثيرا"

-" ماذا؟؟ لماذا لم تقل لي ذلك"

-" لقد زرت الغابة من قبل...، أتعلم اسمها بياتريس، اسم جميل أليس كذلك؟؟"

-" لا يهم، دعنا منها، لقد أفسدتْ متعة نهارنا"

-" أنجري سباقا بالأحصنة"

-" لست على أتم الاستعداد، أتريدني أن أسقط، اخرس، وتابع طريقك"

كانت حياتي في الغرب حياة هادئة وجميلة جدا، وممتعة بصحبة صديقي إيفان، ألفت بعد هذا اليوم عندما أغضب ويضيق صدري، أذهب إلى الغابة وأغطس في عمق شلالها، أنظر في مرآة الماء لأرى الوحش الذي أصبح داخلي.

الفصل التاسع: بياتريس

مضت سنتين إلى الان وأنا في هذه القرية، برفقة أخي إيفان وجدي إيدوارد، لقد كانت الحياة هناك كأنها عوض عما ضاع منا، كان في ذلك الوقت إيفان واقعا في غرام الآنسة بياتريس لمدة سنتين، وفي ليلة من الليالي لم يستطع النوم، يتقلب في سريره ذات اليمين وذات الشمال، لعل النوم يزوره، ثم أيقظني ليفرغ قلبه المكلوم.

-" ماثيو، ماثيو، استيقظ أرجوك"

-" ماذا تريد يا أبله أخفتني؟ دعني أنام"

-" أرجوك اسمعني، فأنا لست بخير"

بعينين نعسانتين:" كلي آذان صاغية، قل ما في جعبتك"

-" بياتريس، أنا أعشقها، أعشقها كما لو كانت الفتاة الوحيدة التي في هذا العالم، انتظر سأريك شيئا بسرعة"

وهو يبحث في أشيائه التي يهوى جمعها قلت له:" يبدو لي يا صاحبي أنها تبادلك نفس الرأي، لماذا لا تصارحها وتنهي هذا الموضوع"

-" دعني أريك أولا، انظر لقد رسمتها، كم هي جميلة وتأسر القلب"

-" صارحها بهذا وأرح نفسك صديقي" ثم أضفت وأنا أغطي رأسي باللحاف:" لدينا فصل غدا دعنا ننام، لقد تأخر الوقت"

-" لم تجرب الحب يا أخي، لو جربته لما نمت، أتوق إلى الغد كي أراها في المدرسة"

-" وهي تحبك أنا متأكد من هذا، اريد أن أنام"

-قال لي وهو يجر اللحاف عني:" حقا، لا أظن ذلك، إن أحدا ما يشغل بالها"

-" لكنها تسعد لرؤيتك، دائما ما تلحق بي أينما حللت، لتسأل عنك"

-" وأين أكون أنا؟؟"

-" مشغولا باكتشاف كهوفك ومغاراتك، والأماكن البعيدة، أيها الرحالة"

-" يالي من غبي"

دائما ما كنت أكره صباح يوم الاثنين، لأنني أكون متعبا جدا ومنهكا، فلا تكفيني عطلة نهاية الأسبوع لأستريح، ذهبنا إلى الثانوية رغم ذلك، فهذه السنة الختامية وعلينا أن نجتهد لننجح، وتكون النتيجة مخولة للالتحاق بأكاديمية الشرطة، لكن لإيفان رأي آخر فهو يريد فقط مقابلة بياتريس، إنهما لا يفترقان ومع ذلك لازال خائفا من مصارحتها بمشاعره.

انتهى الفصل الدراسي، وخرجنا من الثانوية متوجهين للمنزل، وإذا بها تأتي من حيث لا ندري، فرح الارعن لرؤيتها، رغم أنني كنت لا أطيقها.

-" مرحبا أصدقاء، كيف كانت حصة اليوم؟"

-" جيدة، جيدة، كيف حالك؟"

-" بخير يا إيفان، كيف حالك ماثيو؟"

-قلت بتبرة ماكرة كأنني احضر لشيئ" بخير...، سأترككما لوحدكما، إيفان يود أن يصارحك بشيء"

احمر وجه المسكين، لكنني لا أريد أن أعاني من شكواه مرة أخرى، تركته في حيرة وارتباك لا يحسد عليهما، لكن عليه أن يخلص نفسه من هذا الذي يقال عنه حب، ويصارحها.

قال غاضبا بعد أن انصرفت من أمامهما" ماثيو..."

فاستدرت نحوه قائلا" انتظرك عند الشلال يا صاحبي"

طال انتظاري له ولم يأتي، كنت أفكر فيما يمكن أن يقول لها، كيف سيبدأ الحديث معها؟ كنت متشوقا لأن أعرف ما دار بينهما، وكنت أفكر فيما إن كانت لا تبادله نفس المشاعر، ماذا سيفعل حينها؟ أم أنها تحبه أيضا وذهبا ليتجولا في رحاب هذه القرية؟ جالت العديد من الأسئلة في رأسي، هل أفرح له؟ أم أخاف عليه؟ ثم قررت أن أنتظره في المنزل.

قمت أفك لجام حصاني ليل الذي كان مربوطا ، فإذا بي أحس بدوار شديد، سقطت وضربت رأسي مع جدع الشجرة وفقدت وعيي، لم أتذكر شيئا سوى أنني أرى صورتها متجسدة أمامي، ارى بياتريس وهي تبتسم، وشعرها يتراقص والرياح، لقد رأيتها وهي في غاية الجمال، كنت أتأمل تقاسيم وجهها الملائكي، فتساءلت لماذا لم أرها هكذا من قبل، كان حلما أشبه بالواقع.

بقيت فاقدا للوعي لمدة لا أعلمها إلى أن أيقظني حصاني الذي كان يلعق وجهي، ووجدت نفسي مستلقيا على الأرض، والدماء تلطخ رأسي، بعدما استعدت كامل وعيي وبدأت أتجهز لأركب حصاني حتى ظهر المسخ لوميز من خلف الشجرة.

سألني:" أتحبها؟"

فأجبت باستغراب" من؟"

-" تلك الفتاة ومن غيرها؟"

فقلت غاضبا" يا مسخ...، دعني وشأني، لا دخل لك في حياتي"

-" لكنك تحبها فأنت لم تنكر..." ثم أضاف وهو ينظر للسماء يتأمل فيها:" ومن يستطيع أن ينكر الحب؟"

-" اذهب ارجوك..."

-" سأذهب، لكنني سأعود"

وصلت إلى المنزل، وجدني جدي ملطخا بالدماء فسألني عن ماذا حدث؟ فقلت له أحسست بدوار ووقعت، أصر أن يأخذني للطبيب فرفضت، فطببني ببعض الادوات التي تتوفر لديه و ذهبت لأستلقي على سريري، لكنني وجدت إيفان نائما في وقت مبكر على غير عادته، فذهبت إليه أتفقده.

-" إيفان، منذ متى وأنت هنا؟ لقد انتظرتك طويلا عند السلال"

-" أريد أن أنام يا ماثيو"

-" تنام! لازال الوقت مبكرا"

-" تعبت يا صديقي"

-" هل تبكي؟ لم تقل لي، هل صارحتها؟"

-" نعم، وأخبرتني أنها تحب شخصا آخر"

-" ماذا؟ لكنها مقربة منك كثيرا!"

-" نعم، لكن كأصدقاء لا أكثر" ثم أضاف بصوت باكي :" خذ وانظر، لقد سقطت منها هذه الورقة"

-" هذا أنا!!، لا تقلها يا إيفان، أجننت؟ تحبني أنا! لا أعيرها اهتماما حتى"

-" لماذا رسمتك إذن؟ لماذا لم ترسمني أنا؟"

-" هل جننت؟ أهذه تسميها رسمة؟ لابد أنها كانت تتعلم، فقررت أن تتعلم في وجهي لأنها تكرهني"

-" حقا...! أنت دائما تنعتني بالأبله، لذا تتوقع مني أن أصدقك، سأثبت لك قولي هذا، إنها تحبك أنت"

أجبته وأنا أصرخ، وأقطع رسم تلك البلهاء

-" إيفان، وإن ثبت أنها تحبني، كيف لك أن تغضب مني هكذا؟ وأنت تعلم أنني لا أكن لها شيئا"

-" هذا ما يجعلني أحترق من غيظي، لماذا ستحبك؟ لماذا؟"

حاولت أن أهدئ من روعه وأمازحه قليلا

-" لأنني أجمل منك!! هيا قم، قم لنتناول العشاء، هيا اسبقني، سأغسل وجهي من الدماء وأوافيك"

-" كيف ضربت رأسك؟"

-" تخيل، صدمتني الشجرة على رأسي وأنا أنتظرك في الغابة"

ثم أضفت:" إيفان أخي، لا تعطي لهذا الموضوع أكثر من حجمه، ستجد من تحبك بصدق، لا تفرض نفسك عليها"

بعد حديثنا هدأ إيفان قليلا والتحق بجدي لتناول العشاء، وما إن اختفى إيفان، إلى أن ظهر فيليب لينكد علي، لا يكف عن قوله أنّني خنت صديقي، وأحببت بياتريس، يؤكد ويعيد أنني أحبها، لكنني أجيبه بالنفي، كيف لمراهق محيت مشاعره واسود قلبه، أن يتسلل الحب إليه.

بعدها بلحظات، سمعت من غرفتي ضجيجا مصدره الطابق السفلي، انتفضت من السرير وفتحت الباب لأسمع صوت فتاة تصرخ. نظرت من أعلى الدرج، لأراها تلهث من التعب سائلة عن

حالي وماذا حل بي، وجدي المسكين يحاول تهدئتها:" الكل بخير، لا يوجد في هذا البيت ما تجزعي لأجله"

قالت والدموع تنهمر من خديها:" لكنني وجدت الكثير من الدماء على الشجرة التي يجلس عندها ماثيو "

فأجبتها وأنا اشتعل من الغضب" لا تخافي، أنا بخير"

رد عليها جدي بعدي:" تفضلي يا ابنتي، تفضلي اجلسي لتشاركينا عشاءنا"

-" أنا آسفة، داهمت البيت وأنتم تتناولون الطعام"

قام إيفان من مكانه، مستأذنا مغادرة السفرة، وهو صاعد الى غرفته

فقلت له" إلى أين أنت ذاهب؟ أكمل طعامك"

لكنه تابع مسيره ولم يأبه لما قلت، كنت أعلم جيدا ما يدور في باله، وكنت أشعر أيضا بما يشعر، فيالها من خيبة أمل.

نزلت عند جدي، فوجدتها جالسة كأن شيئا لم يقع

قلت لها:" ألا تخجلين من نفسك؟ إلى ماذا تسعين؟"

-قالت في خجل:"ماثيو صديقي، اليوم ذهبت بصحبة حصاني هيل عند شلال الغابة لكنني وجدت الشجرة ملطخة بالدماء، وأردت أن أطمئن، عرفت أنه ماثيو لأنني تركت إيفان عند المدرسة، هذا كل ما في الامر..."

-" كفى...، اذهبي ولا ترجعي مرة أخرى لهذا المنزل"

ثم رد علي جدي بنبرة صارمة" ماثيو اهدأ، لست أنت من تقرر من يدخل هذا البيت ومن يخرج" ثم أمرها بالجلوس، وأمرني أن أنادي على إيفان.

الذي حضر بصعوبة، فهو لم يقدر على مواجهتها بعد أن رفضته

قال مطأطأ الرأس" نعم جدي"

-" هيا اجلس لتناول طعامك، فلتعلم أن هذه الصبية لم تفعل أي شيئ غلط، لا يمكنك أن تلومها على مشاعرها"

أجابه إيفان وهو يجر كرسيه للجلوس" نعم يا جدي، لقد كان خطأي أنا"

خرجت بياتريس عن صمتها لتقول:" لا يا إيفان...، لست مخطئا، جئت لكي أطمئن على ماثيو، وجئت لأعطيك هذه الرسالة، فأنا في النهاية لم أجبك عن سؤالك، لذا كتبت جوابي في هذه الورقة"

خرجت راكضة تحمل قنديلها المضيء في العتمة، تبعها إيفان مسرعا لكنه وجدها قد ذهبت

ثم عاد ليقول لي والحيرة تعلو محياه" هل أخطأت في حقها؟ أنت محق يا ماثيو أنا أبله فعلا"

-" أخبرتك، لكنك لم تصدقني، هيا لنأكل أنا جائع، ولدي الكثير من الواجبات علي انجازها"

-" حسنا يا أخي سنأكل"

أنهيت طعامي ثم توجهت إلى الخارج أتجول أمام المنزل لأفكر فيما حدث قبل قليل، ماذا عساها كتبت في تلك الرسالة، حقا إنها متناقضة كثيرا، قبل قليل أكدت أنها لا تحبه وأن إيفان مجرد صديق، لكن صراخ إيفان الصادر من الغرفة أكد لي فرحته العارمة، لابد أنها في الرسالة عبرت له عن حبها له، لذا ذهبت راكضة قبل أن يقرأ ما فيها.

قطع تفكيري هذا ذلك الشقي وهو يصرخ عبر نافذة الغرفة:" ماثيو...، إنها تحبني"

****

جانب الوادي المكان المفضل لأمي أيام شبابها، إنه المكان الذي كانت تنتظر فيه أمي حبها الوحيد، هنا وفي نفس المكان تأملت تفاصيل فتاة لا تغادرني ابتسامتها قط، وبالنسبة لي فهي على الضفة الأخرى ومن المستحيل الوصول إليها، إنها عشيقة أخي في النهاية وحبه الأوحد.

اكتشفت هذا الحب الذي تسلل عابرا أسوارا من حديد ليستقر في قلبي متأخرا، لقد كان فيليب محقا، ورغم ذلك لن أخون أخي، فإما أن أدفن هذا الحب أو يدفنني، المهم أن يظل إيفان سعيدا بحب حياته.

وأنا شارد في ذلك المكان، كنت أحمل قلما ومذكرة أكتب خواطرا تجول في ذهني، أفرغ في الصفحات ما بي من كرب، إذا بها نفس الفتاة التي كنت شاردا في تقاسيم وجهها قبل قليل تأتي وتجلس بقربي، تحاشيت سؤالها عن سبب مجيئها، فقررنا أن نبقى صامتين، تاركين لمحكمة الحب واسع النظر.

إلى أن نطقت شفتاها بكلام لم أفهمه.

-" إن صديقك لا يجيد كتم الاسرار، ولا يجيد لغة الصمت مثلك يا ماثيو"

-" ماذا تقصدين؟ ماهي هذه الاسرار التي أخبرك بها إيفان؟"

-" ماضيكما مرتبط جدا، عندما أطلب منه أن يحكي لي عن ماضيه تكون أنت في القصة"

-" ماذا أخبرك بالضبط؟"

-" سألته لماذا أنت هكذا؟ هادئ جدا، لا تأبه لأحد، لا تضحك كثيرا، لا تمزح مع أصدقائك"

-" سألتك فأجيبي دون لف ولا دوران، ماذا قال لك ذلك الابله؟"

-" فهمت من كلامه أنك تحس بالذنب، تلوم نفسك كثيرا على ما جرى، أخبرني إيفان أن والديك قد توفيا، و موت أختك الذي أدى بك إلى قتل أحدهم"

-" الغبي، لم يترك شيئا إلا أخبرك به"

-" ألا تتساءل؟ لماذا ذهب السيد جوناثان ولم يعد إلى الان؟"

-" ألم يخبرك إيفان بذلك؟ كان عليك أن تسأليه، لربما نسي"

-" سألته...، وأخبرني أن لا جديد في القضية"

-" هذا هو الواقع للاسف، لا جديد..." تنهدتُ ثم قلت:" حتى أنني لا أدري إن كان أبي حيا أم ميتا"

-" عليك أن تجتمع أنت وإيفان، لابد أن شيئا ما فاتكما أنتما الاثنين"

-" انت محقة، لقد تقاعست كثيرا..."

قالت وهي تربت على كتفي:" لا تحزن، لابد أن التفكير فيما حدث مؤلم جدا، ما مررتما به ليس بالامر الهين، أنا آسفة لأنني حشرت نفسي فيما لا يعنيني، لكن إذا احجتماني في أي شيء سأكون لكما عونا"

-" شكرا لك..."

ثم ذهبت، تاركة إياي في حيرة مطلقة، تشتت أفكاري، حتى أنني أمسكت رأسي من شدة الألم، انفطر فؤادي وهو يقول إلى متى؟ إلى متى سيظل هذا الالم يلاحقني،من عساه المجرم؟

لقد أحيت هذه الفتاة داخلي ذلك الماضي الذي تناسيته، وانغمست في ملهيات الحياة، كأنها أمرتني أن أقوم من مكاني هذا، وأعزم على فك هذه الخيوط بنفسي، لكن الأوان حل وعلي أن أفك أسرار هذه القضية، لذا قررت السفر إلى المدينة الغربية التي كانت أم إيفان ستسافر إليها، وتنوي الاستقرار هناك.

فتوجهت إلى الساقية علني أجد صديقي هناك، وكما ظننت وجدته يلاعب صغير الخروف ويساعده على شرب المياه، فقاطعت شروده قائلا: " كنت أعلم أنك هنا"

-" مرحبا ماثيو، لقد خرجت اليوم باكرا، ولم أجدك عند الشلال"

-" لقد ألفت الجلوس عند النهر، لقد جئت لأخبرك بشيئ "

-" أخبرني، هل هناك جديد في قضيتنا؟"

-" إذا كان هناك جديد كنت ستعلم قبلي، لقد قررت أن نبدأ لوحدنا ومن هذه اللحظة في فك خيوط هذه القضية، لقد انتظرنا السيد جوناثان كثيرا، لقد مرت سنتين ولم يأتنا بخبر"

-" أوافقك الرأي، علينا أن نتحرك وأن نكتشف ما اخفاه عنا أباءنا"

-" في نهاية هذا الاسبوع سنزور المدينة الغربية"

-" ماذا سنفعل هناك؟"

-" سأتقصى خبرا عن أمك، لعلنا نجد شيئا يفيدنا"

-" المدينة الغربية! لكن أصل أمي من قرية شمال هذه المدينة"

-" ألا تعرف المنطقة الغربية جيدا؟"

قال إيفان وهو يشعر بالاسى:" لا كنا نزور جدي الذي توفي قبل اربع سنوات، لايزال منزله هناك، وأعرف مناطق قريتنا كلها، لكن المدينة لم أزرها من قبل، لكننا إذا ولجنا للجامعة سندرس هناك، فهناك درست أمي الهندسة المعمارية"

-" حسنا إذن، أين سنذهب الان؟"

-" سنزور القرية، وسنبدأ البحث من هناك، نسأل أهل القرية إن رأى أحدهم أمي أو اي شيء يمكن أن يفيدنا"

-" أنت محق"،ثم أضفتُ:" لم أقل لك، لقد رأيت بياتريس اليوم، التقيتها عند النهر، وأخبرتني أنك سردت عليها قصتنا كاملة"

-" أنا آسف، لقد سألتني عن طفولتي ولقائي بك فوجدت نفسي أسرد عليها حتى مجريات القضية"

سكت قليلا ثم قال:" لكنني انتظرتها هنا طويلا و لم تأتي"

فأجبته بتلعتم" على ما أظن أنها كانت مشغولة جدا، كلمتني قليلا ثم ذهبت"

-" لا أعلم ماذا أصابها؟ لقد تغيرت معاملتها معي كثيرا"

-" هل جربت أن تسألها؟"

-" يبدو لي أنني اغضبتها دون أن أقصد"

-" ابحث عنها، واسألها عن ما يشغل بالها، إن كنت تحبها فاعمل ما في وسعك لتحافظ عليها، هذه هي الفرصة لتتقرب منها، لا تتركها وحيدة، دعها لا تحتاج لأحد غيرك لتحكي له ما يضمره قلبها"

-" منذ متى وأنت تفهم في الحب؟ أم أن العدوى قد أصابتك أيضا"

فأجبته مازحا:" ومن أحب سواك يا أروع صديق، إيفان أنا حقا أعشقك يا أخي، اذهب وابحث عن ضالتك، ستجدها قد سئمت الانتظار، وأنت هنا تشكي وتبكي"

-" الان، الان، أراك لاحقا"

كيف سأقابل إيفان بحقيقة مشاعري؟ لا أستطيع ان أخون أقرب الناس إلي، فهو ما تبقى من هشيم الماضي، ولإن عذبني هذا السم الذي أحس به في داخلي، فبياتريس لن تحبني.

لا أفهم لماذا نحب الشخص الغلط؟ لماذا لا يختار قلبنا ذاك الشخص الذي يضحي بالغالي والنفيس لأجلنا؟ أو يكمن السر في

الحلم والهدف، يعني أن الشخص الذي لا يكن لنا مشاعر، يصبح غاية لابد لنا من الوصول إليها، وعندما نصل إلى تحقيق هدفنا ننساه ونمل منه، ثم نبحث عن حلم آخر.

بعدها بيومين، كان يوما مشمسا وجميلا حملت كتبي وذهبت إلى جانب الوادي كالعادة، ثم لحقت بي بياتريس، لا أعلم لماذا تفعل هذا بي؟ حتى أكاد اتعايش مع ما بداخلي، وتأتي تذكرني أنها ليست لي، حتى إن كانت لا تحب إيفان، فلا يمكن أن تحبني.

قالت بصوتها الملائكي" مرحبا ماثيو"

قلت في نفسي:" حسبت أنني تخلصت من ذلك اللعين، لكنه يعلم أن هناك من سينوب عنه في تعذيبي"

-" ماذا قلت يا ماثيو؟"

-" لا شيء، لا تهتمي..."

قالت بعد حين" هل استنتجت شيئا جديدا؟"

-" لا، ليس بعد"

عم الصمت قليلا ثم سألتها:" كيف حال علاقتك مع إيفان؟"

أجابتني وهي مطأطأة الرأس:" ليست على ما يرام"

-" لماذا...؟ هل أزعجك إيفان بشيء؟"

-" أدركت أننا مختلفين كثيرا، لا يفهمني، لا يراعي مشاعري، كأنه يدفعني رغما عني لتقبل ما يحبه وما يريده، لا أعلم إن كان هذا السبب فعلا أم أنني لا أحبه حقا"

فجاءتني بقولها هذا، أهي حقا لا تحبه؟

قلت بعد تفكير:" لكنه يحبك من كل قلبه، لا أظن أن إيفان يقصد أذيتك، اعذريه ما مر به ليس سهلا هو الاخر، لم يحظى باهتمام احدهم من قبل حتى والدايه لم يهتما لامره"

-" اعرف كل هذا لكن..." نظرت إليها نظرة تقول أكملي، فقالت:" ياليته كان مثلك..."

تفاجئت من قولها، كأن قلبي في لحظتها استفاق من سبات عميق من وقع كلماتها هاته، لكنني لم أبد لها أي ردة فعل.

قلت لها وأنا مبتسم:" بل قولي، يا ليتك كنت مثل إيفان، أنت لا تعرفين من هذا الوحش الذي تجلسين بجانبه، لا تعلمين أي شيء عني"

-"أنا آسفة سأنصرف" ابتعدت قليلا ثم استاردت إلي لتقول:" ارجوك لا تخبر إيفان بما قلته لك"

-" لا تقلقي لن أخبره"

كان إيفان منذ بدء الحديث، وهو خلف الشجرة.

خرج عن صمته بعد أن رحلت:" لقد سمعت كل شيئ"

قلت له متفاجئا:" إيفان؟ منذ متى وأنت هنا؟"

-" مدة كافية لأفهم أنك تكن لبياتريس مشاعر، وهي تبادلك نفس المشاعر، وأنا الغبي دائما"

تفاجئت كثيرا لدرجة أني أحسست بوخزة قوية في قلبي" هل جننت؟ ما هذا الهراء؟ لقد كنا نتحدث عنك"

-" لقد قالت: يا ليتني كنت مثلك يا ماثيو..." ثم أخرج من جيبه ورقة ورماها علي ثم قال لي بعصبية:" كنت أريد أن أعرف من هذه التي كتبت عنها هذا الشعر...، يا لي من أبله كيف لا ألاحظ أن جميع الاوصاف هي اوصافها"

وقبل أن انبس ببنت شفة تركني ورحل غاضبا

بعد مدة تبعته إلى المنزل، دخلت إلى غرفتنا وأغلقت الباب، وجدت جالسا على طرف سريره يفرك رأسه غير متقبل لما يحصل حوله.

قلت له بهدوء محاولا الاقتراب منه" إيفان دعني أشرح..."

فقاطعني" هل فعلا أنت تحبها؟ أجبني وبصراحة"

أجبته وأنا أتهرب من سؤاله" لكن الشعر لا يعني ذلك، كنت أكتب فقط لأملأ وقت فراغي، كما لو أنني أترجم حبك لها في أشعاري"

-"أجبني عن سؤالي فقط، هل تحبها؟"

وهنا لم أستطع إجابته، كأنني بلعت لساني، وكيف أستطيع أن أنفي ما أكنه في قلبي، لم أقدر

فاستنتج من صمتي وعدم نفيي ثم قال:" إذن أنت تحبها فعلا، لكن لماذا لم تخبرني؟ لماذا أخفيت عني حقيقة مشاعرك؟"

-" كنت أعتقد أنها مجرد مصدر إلهام صدقني، لم أشعر بنفسي حتى تسلل حبها إلى قلبي"

-" منذ متى وأنت تحبها؟"

-" ذلك اليوم...، اليوم الذي فقدت وعيي عند الشلال"

قال لي بأسى والدموع تنحصر في عينيه:" أنا أعتبرك أخي...، انت ما تبقى من عائلتي حرفيا...، لقد خدلتني يا ماثيو"

فأجبته وأنا أشعر بحزن عميق" وأنت كذلك أخي"

ثم أضفت كذلك:" أخفيت عنك ولم أخنك، أقسم أنني لم أنظر في وجهها قط، لأنني أعلم أنها خاصتك"

انهار باكيا وأمسك برأسه، ثم اقتربت منه شيئا فشيئا وعانقته، لكنه لم يسمح لي أن اقترب منه، لقد كان ضعيفا لدرجة أنه ذكرني بأختي الصغيرة، عندما وجدتها مكورة في ذلك الصندوق، ثم استمرينا بالبكاء معا.

قلت له: " أنت من بقي لي من حياتي الماضية"

أجابني" لقد سمعت كل شيء قلته عني..."

-" ماذا قلت؟"

-" المهم أنك تكلمت عني بصدق لأنني أحبها فعلا، أعشقها..."

-" وهي أيضا تحبك...، فقط تحتاج وقتا لتفهم نفسها"

لم يعر كلامي أي أهمية:" هل ستصارحها بمشاعرك؟"

-" لا، وعدت نفسي أن أدفن هذا الحب في قلبي إلى الممات"

-"هل تفعل ذلك لأجلي؟"

-" لا، بل لأجل وعد آخر قطعته على نفسي"

-"ما هو هذا الوعد؟"

لم أجبه عن سؤاله، لانه لن يفيده بشيء، أدركت حينها مدى أهمية هذا الحب بالنسبة لإيفان، لأنني حقا لن أبقى حتى أنال جزاء ما فعلته لاختي، لأمي ولأبي، حتى إيفان آذيته دون قصد.

قلت له وأنا عازم على الخروج من الغرفة:" لا تيأس من حبك لها بسببي، فهي لازالت تحبك"

ركبت حصاني ليل وذهبت إلى وجهة لا أعلمها فقط لكي أهدأ وأنسى ما حدث.

****

وجدت نفسي ودون سابق انذارأهيم في عشق فتاة، بعدما حسبت أن مشاعري تجمدت وتحولتُ لوحش، أحببتها رغما عن الشر الذي احتلني، وأشعر أنها استطاعت إنارة وجداني وبصيرتي، لكنها لا تبادلني نفس الرأي، فأنا في الاخير لست سوى صديق.

رغم أن البارحة غضب مني إيفان لأنه عرف بشأن حبي، وقل كلامه معي، وأصبح يتعامل معي برسمية، لكننا لم ننسى أن بعد يوم موعد الرحلة، فمع ذلك نحن نتشارك نفس المصير.

في صباح هذا اليوم ذهبت لوحدي إلى الثانوية على غير العادة، لكن عندما حان وقت العودة إلى المنزل أصريت عليه أن نعود معا، ونحن في طريقنا التقينا مع بياتريس وهي مسرعة، أوقفها إيفان وهو يقول:" بياتريس لما العجلة"

أجابته" أهلا، كيف حالكما؟ حقا لم انتبه"

قال لها:"نحن بخير...، وأنت؟"

-"أنا بخير..."

ثم سألها:"هل لديك بعض من الوقت، علينا أن نتحدث"

فقلت أنا:"استسمحكم عذرا" رحلت وتركتهما.

دلفتُ إلى غرفتي، القيت نفسي على سريري، وبدأت الافكار تحوم في رأسي حول كل شيء مر علي في حياتي،والاسى والوحدة التي كنت أشعر بها أحيت مشاعرا كنت قد دفنتها منذ زمن طويل، فلم أجد امامي سوى العبرات تبدد ما بي من الم، وأنا على هذا الحال خرج فيليب عن صمته بعد طول غياب.

-"لم أكن أظن أنك هش كالقشة هكذا"

فأجبته:"أنا هكذا منذ أن فقدت عائلتي"

-"إيفان في النهاية يأخد منك كل شيء"

-"لا أكترث...، ما أريد في هذه الحياة هو الانتقام لعائلتي"

-" لقد تاخرتَ كثيرا..."

-" دائما هناك فرصة، وعندما تحين فرصتي سوف استغلها"

-" لقد تعبت من الانتظار"

-" فيما يعنيك الامر؟ لا تنسى أنك من قتلت أختي"...

قاطع حديثنا هذا دخول إيفان الذي كان محبطا نوعا ما، فقررت أن أسأله عن سبب وجهه العبوس.

فأجابني:" لقد انتهى كل شيء"، وما فهمت من قوله أنه من قرر إنهاء هذه العلاقة، فهو لا يحبذ أن يكون ثقلا على أحدهم.

فاقترحت عليه أن نذهب بصحبة خيولنا إلى الشلال، فوافق على مصاحبتي بصعوبة، وعندما وصلنا هناك شردت في أفكاري.

فقال لي إيفان:" فيما تفكر؟"

-" أفكر فيما يمكننا إيجاده في بيت جدك، لدي الكثير من الأسئلة في رأسي، أكاد أجن يا إيفان"

-" إنها قضية معقدة، لا أكاد أفهم لماذا فعل الجاني ذلك في أمك؟ أين أمي؟ ولماذا هي مختفية؟ لا أكاد أفهم الكثير من الأمور في قضيتنا"

فسألته سؤال غير متوقع:" إيفان...، ماذا لو كانت أمك من فعلت ذلك في أمي؟"

-" ولماذا لا نقول أن أباك من فعل؟ توجد بصمات الجميع في مسرح الجريمة، واللغز الأكبر: من فعل؟ من هو الجاني؟"

-" أعتذر، لا تؤاخذني، فأنا مشوش قليلا"

فجأة يصرخ إيفان قائلا:" بياتريس"، استفسرته عن ماذا يجري؟ ثم أشار مصدوما نحو حافة الشلال، ثم رأيتها تحاول السيطرة على حصانها الذي بدا هائجا يتوجه بها إلى الهلاك، انتفض إيفان بسرعة، ركب حصانه، وتوجه إليها، أما أنا فذهبت سباحة أسفل الشلال، أشير لها بالابتعاد لكنها لا تكاد تسمعني.

فقلت لها:" أيتها الخرقاء، لماذا تفعلين هذا؟ تراجعي للوراء ستسقطين، ارخي له لجامه..."

اصرخ بأعلى صوتي لكنها لا تسمعني، ولازال حصانها لا ينقاد لأوامرها، لكنها كانت تتعامل معه بطريقة خاطئة، وصل إيفان

إليها بعد أن ترك حصانه على مسافة، حاول الاقتراب من هيل عله يهدأ، لكنه امتنع، لم أكن أعلم ماذا كان يقول لها.

فواصلت قولي:" بياتريس ارخي اللجام..."

قالت وهي تصرخ بأعلى صوتها:" لا يريد الانصياع لأوامري لا أعلم ماذا حل به، فلتساعدني إيفان"

قال إيفان وهو يحاول الاقتراب من هيل:" لا تخافي، سأجد حلا... لابد من وجود حل المهم ألا تخافي"

-قالت له وهي غاضبة:" كيف تطلب مني الهدوء؟ ساعدني"

ثم توجه إلي بالحديث من الاعلى:" ماثيو... أحضر الحبل"

أسرعت في تنفيذ ما طلبه مني إيفان، قام بصنع حلقة بواسطة الحبل، ثم رماها علها تمسك براس الحصان، لم تفلح الخطة إلا بعد عدة محاولات، لكن هيل انقلب على عقبه وسقطت بياتريس من فوقه، تأذى ظهرها واصطدم رأسها بالصخر، وغابت عن الوعي، لكنني استطعت سحبها وأخذناها بسرعة إلى المستشفى.

قال لي إيفان وهو يعض انامل الندم:"لقد فقدت بصيرتي بسبب الغيرة، وحكمت عليها دون أن اسمع منها حتى، أنا الان لا أريد منها شيئا سوى أن تكون بخير"

أجبته وأنا أربت على كتفيه:" لا تقلق...، ستكون بخير"، وأضفت:" أنا آسف، أنا السبب في تدهور علاقتكما"

لكنه لم يجبني بعد قولي هذا.

قلت له:" لا تكن ضعيفا، إنها لك أنت، دافع عن هذا الحب النقي، رأيتك عندما حملت حصانك دون تفكير، وذهبت إليها"

فأجابني:" حتى أنت خاطرت لأجلها..."

-" ليس لأجلها، بل لأجلك، علمت أنك ستحزن كثيرا لفراقها"

فقاطع حديثنا الطبيب قائلا:" لقد استعادت وعيها يمكنكما تفقد حالها"

قلت له" اذهب لها، سأنتظرك هنا"

-" حسنا، سننتظر إلى أن يحظر والداها ونذهب عندها"

دخل إيفان إلى غرفة بياتريس، وترك الباب خلفه مفتوحا فكنت أسمع حوارهما

قال لها وهو يمسح على جبينها" كيف حالك الآن؟ هل أنت بخير؟"

-" كيف حالك إيفان؟ هل تأذيت؟ أين ماثيو هل أصابه مكروه؟"

-" إنه بخير ينتظرني في الخارج"

-" أود أن أشكركما لأنكما أنقذتماني"

-" المهم أنك بخير..."

-" أنا بخير بسببكما"

فقال لها بعد ذلك:"كيف حصل لك هذا؟ هيل حصان مطيع"

-" لابد أن شيئا ما أخافه، افعى او شيء من هذا القبيل"

ثم قال لها بعد حين" أنا آسف حقا لأنني شككت بك، ولم أصدق أنك حقا تحبينني"

-"حقا أنا متفاجئة..." قاطعت دموعها كلامها ثم قالت بصعوبة:" لماذا لا تصدق أنني أحبك حقا يا إيفان"

-" حقا أنا آسف، لا أعلم ماذا كان سيحل بي إذا رحلت؟ فأنا لا أملك أحدا غيرك أنت وماثيو، لقد اصبحت أخاف من أن يصيبكما مكروه، أو أن تذهبا وتتركاني دون سابق إنذار"

-"أنا غاضبة منك كثيرا، لأنك جرحت مشاعري"، اردفت بعدما أدارت وجهها إلى الناحية الاخرى" لكن شكرا على ما فعلته لأجلي"

فقال لها وهو في حالة يأس" سنسافر غدا أنا وماثيو، عندما أعود أعدك بأنني ساصلح غلطتي"

ظهر فيليب مرة أخرى وأصبت بالدوار الشديد، حتى أنني لم الحظ أن إيفان يقف بجانبي. همس ذلك المسخ في أذني" لكنني أنا الوحيد الذي يعلم أنك تحب هذه الفتاة حبا لا يمكن دفنه" فقلت بغضب" لا تثرثر يا هذا، ابتعد عني"

أجابني إيفان متعجبا:" لم أتفوه بكلمة، لابد أنك لم تألفني صامتا هكذا من قبل"
لكنني فعلا أحببتها، لم أتحمل أن أراها تفقد حياتها،أحبها وأحب الانصات لصوتها، لدرجة أنني أكره إيفان عندما يقاطع كلامها، أعشق نظراتها التي تلاحقني دائما، لا أتحمل أن أراها قريبة من ذلك الثرثار، كم وددت أن أتفقد حالها، أن أمرر يدي على جروحها، لكنني لا أستطيع أن أمدها بأمل لست أملكه، لن أربطها بقدري لأتركها تداري جروحها لوحدها، فلتكن النهاية نهاية هادئة، لا تحدث ضجيجا في حياة أحد، كرحيل أختي صوفي، لذا فبياتريس في أيد أمينة مع إيفان، هو يحسن التعامل معها.

الفصل العاشر: البيت المهجور

امضيت في القرية قرابة الاربع سنوات ولم أغادرها قط، كانت أول مرة أعزم فيه السفر دون صحبة عائلتي، حتى الغاية من السفر مختلفة هذه المرة، عسانا نجد شيئا يفيد في القضية.

وأنا أتجهز لأركب العربة من بعد إيفان، قال لي جدي:" بني كن حذرا،عد إلي سالما، وأنت أيضا يا إيفان رافقتكما السلامة"

-" شكرا يا جدي،اهتم بنفسك "

ثم قال إيفان بعدي:" وداعا جدي" ثم قال لي ونحن في العربة:" آمل أن نجد شيئا"

فأجبته" أتعلم فيما أفكر؟؟"

-" عندما نركب الحافلة أخبرني"

-" حسنا"

لقد كنت خائفا ذلك اليوم، كنت خائفا من ألا أجد شيئا، وخائفا من أجد حقيقة تصدمني، كادت الحيرة تقتلني، أريد أن أجد سر هذا اللغز الذي أذهب الراحة من بالي فأصبح شغلي الشاغل الذي لا مفر منه.

وصلنا للمحطة التي سنستقل منها الحافلة، ونحن في الحافلة متوجهين إلى المدينة الغربية.

-" ماثيو، ماذا كنت ستخبرني قبل قليل؟"

-" أفكر في الانتقال إلى الشمال"

-" لماذا؟ أتعلم منذ متى لم نسافر هناك؟"

-" يقلقني اختفاء السيد جوناثان، منذ أن أتى إلينا في ذلك اليوم لم يعد، ووعدنا أنه سيذهب للمدينة الغربية ليتقصى خبر أمك، لكن لم تصلنا منه أية أخبار بعدها"

-" رغم أن المسافة بعيدة، فلنسافر هناك لنسأل عنه، لكن لنتمم دراستنا هنا في المدينة الغربية"

-" لا! لابد لي أن أكون قريبا من مسرح الجريمة"

-" حسنا! سأرافقك أينما ذهبت، لن أتركك وحيدا"

-" شكرا لك إيفان، والان سأنام قليلا عندما نصل أيقظني"

-" لا تقلق، وأنا سأقرأ هذا الكتاب"

عند الشلال، أراها تقترب مني شيئا فشيئا، ترتدي فستانا أبيضا وتضع تاجا من الورود فوق رأسها، صغير حجمها، لم أستطع أن

أميّز صورتها لم أتعرف عليها، لكنها تعرفني وكانت تناديني بصوتها الرقيق:" ماثيو، ماثيو"، ثم قالت:" أخي ماثيو، لقد اشتقت إليك"

ثم أجبتها:" هل أنت أختي صوفيا؟" هرولت نحوها،عانقتها بشدة وأنا أقول لها:" وأنا كذلك اشتقت لك أختي، اشتقت إليك كثيرا"

فقالت لي وهي باكية:" أخي لقد حرموني من الحياة، وحرموني منك" ثم نظرت الي وابتسمت قائلة:" لكن الحياة هنا أجمل بكثير، إلى متى سأنتظرك هنا؟ لقد مللت وحدي"

قلت لها وأنا أتأمل في تفاصيل وجهها:" لقد أصبحت جميلة جدا وكبرت كثيرا، سأوافيك عما قريب لا تقلقي، سنلعب كثيرا"

-" وأمي كذلك اشتاقت لك أيها الشقي"

-" وأبي؟ ألا يوجد هناك؟"

-" لقد اشتقت إليه أيضا، عندما تلتقي به أخبره أنني اشتقت إليه يا ماثيو"

ثم ذهبت تركض نحو الاتجاه الذي أتت منه، ناديتها قائلا:" أرجوك لا تذهبي صوفيا، صوفي..." لكنها واصلت مسيرها ولم ترد على ندائي.

بعدها سمعت صوت إيفان يقاطع حلمي:" ماثيو، ماثيو، ما بك؟ لم تتوقف عن ذكر اسمها، كل من في الحافلة انتبه"

-" من؟ ماذا تريد؟"

-" صوفيا، منذ بداية الرحلة وأنت تنادي باسمها، انهض لقد وصلنا"

نظرت من نافذة الحافلة:" أهذه هي المدينة الغربية؟"

-" نعم هي، لم أزرها مذ كنتُ في السادسة من عمري"

كانت مدينة تتميز بعمران مغاير عن معمار الشمال الذي ألفته، كأنني في دولة أخرى، كل المباني تقريبا بنفس الطول ليست بشاهقة، والزخارف ذات طابع قديم لكنها تضفي رونقا جميلا، لكن كان علينا أن نجد سيارة أجرة تأخدنا للقرية لذا لم أستطع الاستمتاع بجمال تلك المدينة.

عندما وصلنا لوجهتنا، كان أول سؤال سألته لايفان هو:" هل تتذكر عنوان المنزل؟"

-" لا، لكنني أحمل في حقيبتي رسالة كانت قد كتبتها أمي لجدي"

-" ارني إياها..."

ثم سمعنا صوتا أنثويا ينادي:" انتظروني، لا تذهبوا"

لقد كانت بياتريس، لكن لماذا هي هنا؟

-" بياتريس، ماذا تفعل هذه هنا؟ ألم نتركها في المستشفى؟"

-" لا أدري يا ماثيو"

-" مرحبا، لقد تبعتكما إلى هنا، لا تلوماني على فعلي هذا، لابد أنكم ستحتاجان إلي"

قال لها إيفان وهو غاضب جدا:" كيف تسمحين لنفسك بالسفر؟ لا يبدو عليك أنك بخير"

أجابته وهي كلها حماس:" حقا أنا بخير، فقط كسر في يدي، لا تقلق..."

قاطعتها قائلا:" إيفان اتبعني" ثم قلت في نفسي:" يا لها من خرقاء"

لاحظت بياتريس تعابير صديقي التي ترمقها بغضب، فقالت له:"إيفان هل أنت بخير؟"

فقال لها:" لا أظن ذلك، فلنلحق به"

وقلت أنا:" يا ترى أي طريق تأخذنا لهذا المكان؟"

فقالت لي:" ماثيو دعني أرى العنوان"

أومأ لي إيفان برأسه لكي أفعل، فأعطيتها إياها، تمعنت قليلا في الظرف ثم قالت:" علينا أن نمشي قليلا بعد، لنصل للطريق التي سنسلكها"

-" حسنا، فلنذهب إذن"

مشينا قرابة النصف كيلومتر، كنت أتمنى حينها ألا تضيع جهودنا سدى

قال إيفان:" الطريق طويل ومنهك جدا، لقد تعبت كثيرا"

فأجبته:" إيفان كفاك تذمرا، سنصل عما قريب"

فتوجه بالكلام لبياتريس:" لقد قلت لنا أنه لم يتبقى إلا القليل"

-" أريد بعض الهدوء، إيفان راقب في الاتجاه الاخر، ربما نجد عربة أو سيارة تأخدنا هناك سريعا"

-" يبدو لي أن هذه الطريق لا يمر منها أحد، سأشوى تحت هذه الشمس الحارقة"

فقلت له:" كفى ثرثرة وافعل ما قالته لك"

وعندما ذهب بقيت أنا وهي على جانب الطريق صامتين لا نتكلم إلى أن بادرت بالكلام

-" لم تسمح لي الفرصة أن أشكركما، لذا قررت اللحاق بكما"

-" لا شكر على واجب، لم يكن عليك المجيئ معنا، كان عليك أن تبقي في المستشفى"

-" سأذهب لإيفان، علنا نجد من يقلنا لهذا العنوان"

انتظرنا طويلا، إلى أن مرت سيارة من هناك، فطلبنا من صاحبها إيصالنا،

قال له إيفان:" يا عم، هل هذه الطريق مقطوعة، انتظرنا طويلا ولا سيارة تمر من هنا"

-" هناك أشغال في المقدمة، لذا فهي مقطوعة" وأمرنا بالصعود

إيفان:" شكرا لك سيدي، أتعرف أين يقع هذا العنوان بالضبط"

-" دعني أرى، السيد راولي لوثر، إنه جاري، لكنه مات منذ سنوات"

-" إنه جدي..."

-" هل يكون جدك؟ نعم لقد رحل على حين غرة، أتذكر ذلك اليوم جيدا عندما زارت ابنته البيت"

قفزت من مكاني قائلا:" هل زارته ابنته؟ أمتأكد أنها ابنته؟"

-" نعم لقد كانت السيدة سيلا، أتذكر أنها كانت تبكي بشدة أمام الباب"

-" أمي، أرأيت أمي؟ متى كانت آخرة مرة رأيتها؟"

-" منذ 4 سنوات، كانت آخر مرة رأيتها عندما أعطتني سيلا مفاتيح البيت لأهتم به، يبدو أنها كانت تعاني من مشاكل كبيرة"

قال إيفان والصدمة بادية على محياه:" أمي لازالت على قيد الحياة"

لم أستطع أن أجيب إيفان، دعه يفرح بهذا الخبر، لكن الشك يزيد، والحيرة تكاد تقتلني، وأنا شارد في أفكاري، ظهر فيليب وهمس في أذني:" لقد قلت لك يا ماثيو، أن العدو قريب منك كثيرا، أخذ منك كل شيء ولازال يأخذ منك، وأنت تسمح له بأن يفعل في حياتك ما يشاء"

-" دعني لا أراك مرة أخرى لوميز، دعني لا أراك مرة أخرى أيها المسخ"

كنت أضرب رأسي وأهمس بهذه الكلمات التي تحيل على الهيجان الذي أكبته داخلي،

لاحظ إيفان وقال لي:" ماثيو، هل أنت بخير؟"

-" ابتعد عني، أريد بعضا من الهدوء إن أمكن"

-" إذا كانت أمي على قيد الحياة، ووجود بصماتها في مسرح الجريمة، هذا لا يعني إلا أنها هي الفاعل"

فأجبته وأنا أصرخ في وجهه:" قلت لك أريد بعض الهدوء، اصمت أرجوك"

قال لنا صاحب السيارة:" نسيت أن أخبركم، أن رجلا قبل سنوات أتى يتعقب أثر السيدة سيلا، أخبرني بأنه سيعود لكنه لم يعد بعد ذلك"

قالت بياتريس:" لابد أنه السيد جوناثان "

فأجابها إيفان:" نعم، يا بياتريس إنه هو"

قال صاحب السيارة:" لقد وصلنا، سأذهب لأحضر المفاتيح من المنزل"

قلت له:" شكرا سيدي، سننتظرك هنا"

ثم همس لي إيفان في أذني قائلا:" ماثيو...، عدني أنك لن تكرهني مهما كانت النتيجة"

أجبته ببرود:" فلنتحقق من الأمر أولا"

-" هيا قلها، قل لي أنك لن تقاطعني، ولن تكرهني إذا كان ما أفكر فيه صحيحا"

-" لقد أزعجتني..."

-" هيا يا أولاد، لقد أحظرت المفاتيح"

قلت لإيفان:"هيا لنذهب"

كان البيت واسعا وكبيرا، يتكون من طابقين، ثم الطابق السفلي، كان غريبا كغرابة منزل إيفان السابق، كان أيضا ذو طراز قديم لكنه جميل، يبدو أن جده هو الآخر مهووس بالأثار والذكريات القديمة، لابد أن هناك غرفا سرية كالتي كانت في غرفة إيفان.

قال إيفان:" ماثيو، بياتريس، كل منا سيبحث في طابق، أنا سأبقى هنا"

تفرقنا وذهبت للطابق السفلي أبحث عن شيء يمكن أن يفيدنا في معرفة الحقيقة، وبياتريس كانت في الطابق العلوي، كنت كلما أنزل في الدرج أتذكرأختي، أتذكر عندما وجدتها محشورة في

ذاك الصندوق، توقفت قليلا لأتذكر أنني أفلتها من بين يدي، وتركتها تذهب لحتفها دون عودة.

تحسست مكان القابس، لأن المكان كان مظلما، لكنني لم أستطع إيجاد القابس، إلى أن صدمت رأسي بشيء فأمسكت بخيط فوقي، فأضيء المكان من حولي.

قال لي ذلك المسخ:" لازالت حية، مضت اربع سنوات وهي حرة طليقة"

-" ابتعد من هنا، دعني أركز في بحثي"

-" ماذا ستجد هنا؟ لا يوجد سوى الخردوات"

وأنا أخاطب نفسي:" من أين سأبدأ؟ لابد أن أجد شيئا ما"

أجابني:" ابدأ من نفسك، لماذا لا تريد معاقبته هو أيضا؟"

-" ماذا فعل لي؟ لم يفعل أي شيء يؤذيني، ليس ذنبه أن سيلا هي أمه"

-" لكنه يأخذ كل شيء منك، اسمع إنهما يتمازحان مع بعضهما، وأنت تبحث هنا كالأبله"

-" لكنه فقد الكثير في هذه الجريمة أيضا"

-" لماذا مات الجميع عندما قررت هي وابنها الهروب من المدينة؟ اسال نفسك هذا السؤال"

-" في ماذا تفكر؟"

-" أفكر...، أن لإيفان يد فيما وقع، تذكرت أنه كان يمقت أباه مقتا شديدا، حتى أنه لم يحزن عليه كثيرا"

أجبته غاضبا:" لا تتفوه بهذه التفاهات، لقد كان معي يوم الحادث"

-" لا تلمني إن وجدت نفسك وحيدا بسببه، ماثيو لماذا تضحي لأجله هكذا؟ لماذا تمنحه فرصة التقرب منها، أنت تحبها لماذا لا تصارحها بذلك، لابد أنها تحبك أيضا"

-"أنا لا احبها..." تنهدت ثم قلت:" أحبها لكنها لن تكون سعيدة معي"

-" أحيانا يا ماثيو يكون الموت أهون من أن نرى من نحب مع شخص آخر"

-" ما أدراك أنت بالحب، شخص حقير مثلك لا يحق له الحديث عن الحب والمشاعر، أنت قتلت فتاتا عمرها تسع سنوات"

انتفض من مكانه، وهجم علي يضربني بكل قوته، مثيرا بذلك ضجة كبيرة، لفتت انتباه إيفان وبياتريس.

ناداني إيفان:" ما بك ماثيو؟ هل أنت بخير؟"

فأجبتهم رغم انقطاع أنفاسي:" أنا بأفضل حال، فقط سقطت بعض الأغراض هنا"

جلست لكي أستريح من الضرب الذي انهال علي به ذاك المجنون، وبدأت اجمع الاغراض التي سقطت عندما هاجمني ذلك المسخ، لكنني وجدت أمامي ملابس ملطخة بالدماء وكيسا بلاستيكيا داخل صندوق ، صدمت كثيرا، اقتربت من الكيس وفتحته، فوجدت سكينا عليه بقع من الدم.

ثم قال وهو يلهث:" لقد كانت واضحة جدا، إنها الفاعلة"

جمعت الدليل في الكيس، وصعدت إلى فوق متوجها لبيت ذلك الرجل، طرقت الباب عليه بعصبية شديدة، إلى أن فتح الباب

-" ما بك يا بني؟ هل وجدتم شيئا؟"

-" لم نجد أي شيئ، لكنني أريد أن أسألك"

-" اسألني، ماذا هناك؟"

-" هل سبق أن أتى شخص إلى هنا يسأل عن السيدة سيلا؟"

-" سألني عن السيد لوثر فأجبته أنه قد مات ورحل "

-" لماذا لم تفتح له المنزل كما فعلت؟"

-" لا يمكن أن أفعل، فهو لم يعرف بنفسه"

قلت بغضب:" إيفان فلنذهب من هنا"

قال السيد:" انتظروا سأوصلكم لمحطة الحافلات"

أجابه إيفان:" شكرا لك يا عم" ثم انتبه أنني على غير عادتي:" ماثيو هل أنت بخير؟ هل وجدت شيئا؟"

قلت له:" لا تسألني عن أي شيء"

قاطعتنا بياتريس قائلة:" اعذروني...، لكنني وجدت هذه الصورة فوق"

قلت لها:" دعيني أرى..." فوجدت شيئا لم أكن أتوقعه أبدا.

إيفان:" ما بك ماثيو؟ ماذا هناك؟ هذه صورة عادية "

همست له بياتريس:" دعه لابد أنه مشوش الذهن، فلتسأله عندما نصل "

كنت غاضبا جدا، لدرجة كنت أنظر لإيفان بطريقة مخيفة، حبست نفسي لكيلا أصرخ عليه أمام الجميع، تذكرت أنني عشت محروما من أمي وكذا أبي ثم أختي بسبب أم صديقي، لكن ما الحساب الذي بينها وبين أمي لتقتلها، وتنكل بجثتها لتلك الطريقة؟ ما سبب هذا الحقد كله؟

لوميز:" ماذا ستفعل الان؟"

-"سأجدها ولو بعد سنوات، سأجدها وأنكل بها كما فعلت بجثة أمي"

لوميز:" ماثيو، هل أنت بخير؟"

-"أرجوك لا تكلمني، فلتصمت نهائيا"

****

الحقد داء يعمي البصائر، ويغيب العقل، ويشعل نار الغيظ في القلوب...، أن يكون ابن القاتلة أمامي هذا جعلني أفكر في أمور لا تحمد عقباها، لم أكن ارى أن هذا الغضب ينهيني أنا، يقتلني أنا لا يترك في شيئا من ماثيو القديم كأن الشر قد استحوذ علي.

عند وصولنا للقرية، طلبت من إيفان أن نلتقي في غرفتنا، لابد له أن يرى وجه أمه الحقيقي، لابد أن يتيقن أن أمه هي القاتلة حقا، هي التي حرمتني من دفء عائلتي.

أنا:" اغلق الباب وراءك"

-" ماذا هناك يا ماثيو؟ لقد أثرت جنوني، الطريق كلها وأنت صامت"

قلت بغضب:" انظر داخل الكيس ماذا وجدت هناك؟"

بدت الصدمة على وجهه:" لا أصدق...؟ وجدت هذا الكيس هناك؟ هذه ملابس أمي"

-" أرأيت يا إيفان؟ أرأيت؟ إنها هي من قتلت أمي، ليس هذا فقط، هذه القلادة لأبي... أهدتها له أمي، يا ترى ماذا كانت تفعل في ذاك البيت؟"

-" لا يا ماثيو هذه قلادة أمي، كانت تضعها دائما"

غضبت كثيرا:" لا يهم...، لا يهمني...، لكن الدماء التي على ملابس أمك، تعود للضحية نتالي، يعني أمي"

-" أتحسب أنني فخور بهذا، أنا كذلك مصدوم مثلك"

-" مصدوم مثلي، كنت أسمع قهقهاتك أنت وتلك الفتاة، أكان يهمك أن تبحث في جريمة أمك؟ أكان يهمك أن تجد دليلا يثبت إدانتها؟ لم يكن ليهمك كل هذا، لم أعد أثق بك يا إيفان"

-" ماذا؟؟ لكن ماذا فعلت لك أنا؟ بياتريس وجدت صورة لي وأنا رضيع فأضحكتها صورتي، لقد بحثت جيدا، لكنني لم أجد شيئا مهم يساعدنا في هذه القضية، أوصل الحقد فيك لهذه الدرجة؟"

-" نعم، نعم، نعم، هكذا أنا، هيا أخبرني أين يمكنني أن أجدها؟؟"

-" من؟ هل تتحدث عن أمي؟ أنا لا أعرف أين هي الان"

لم أتمالك نفسي، فأمسكت برقبته وأخرجت فيه جميع غضبي:" سأجدها، سأجدها ولا تلمني فيما سأفعله بها، سأقتلها وأمزقها تمزيقا"

ثم دلفت بياتريس إلى الغرفة، فوجدتني أكاد أصبح قاتلا:" ماثيو، ماذا تفعل؟ اتركه سوف تقتله"

فسحبته من يدي بصعوبة، أتذكر أنني في تلك اللحظة كنت كالذي به شيطان، يحرضه على القتل، لم أكن لأتركه لولا تدخلها، لكن إيفان لم يتحمل فسقط على الأرض يسعل بقوة،

كانت بياتريس تحاول أن تسعفه لكنها لم تكن تعرف ماذا ستفعل؟ لكنني نظرت مطولا في عينيه التي تحاول أن تقول لي:" لا تفعل يا ماثيو، لا تحقد علي فنحن إخوة، لقد وعدتني أننا سنبقى إخوة لأخر يوم في حياتنا"، ثم فقد وعيه، صرخت بياتريس ليأتي جدي مسرعا، ومتسائلا عما حصل، لم أجبه لأنني كنت شاردا فيما حصل لإيفان، أخذوه على وجه السرعة للمستشفى، أما أنا فحبسوني في غرفتي لأنني كنت كالثور الهائج.

جلس لوميز على الكرسي يرمقني بنظرته المهتادة، ثم قال:" أحسنت، لقد أحسنت صنعا، والان شفيت غليلي، لولا لم تتدخل تلك الغبية لكان ميتا"

أجبته:" لا أريده ميتا الان، وإلا كيف سأنتقم من تلك التافهة؟"

-" لا تقلق لن يموت، وسوف تنتقم من كل هؤلاء الذين ظلموك"

-" نعم، سوف أنتقم منهم أشد انتقام"

بعد حين دخل علي جدي غاضبا:" هل جننت يا ماثيو؟ أين ذهب عقلك؟"

صفعني بشدة ثم قال:" أنت لست ماثيو الذي أعرفه، ماثيو لا يؤذي أخاه الذي تربى معه"

-" لكنك لا تعرف ما سبب قيامي بذلك"

-" لا يوجد سبب يسوغ فعلتك هذه بني، كدت تقتل أخاك"

-" أمه قتلت أمي، أعيدها لك أمه قتلت ابنتك الوحيدة"

-" ماذا؟ هل هذا صحيح؟ هل أمه من فعلت؟"

جلس على السرير، وأمسك رأسه من شدة الصدمة، ثم أضاف بصوت خفيف:" لكن ليس سببا، هو كذلك لا يستحق ما فعلته به"

-" كيف حاله الان؟ هل مات؟"

-" لا لم يمت، لكنه لازال غائبا عن الوعي، اذهب وتفقد حاله، لا تتركه وحيدا بني"

-"سأذهب إليه، لم نكمل حديثنا..."

-" اذهب، أريد أن أبقى وحدي لبعض الوقت"

ذهبت إلى المستشفى، ووجدت تلك الفتاة تنتظر أمام الباب، فتجاوزتها لأدخل للغرفة التي يرقد فيها إيفان، لكنها أوقفتني وبدت غاضبة مني كثيرا.

-" توقف، إلى أين أنت ذاهب؟ أنت السبب فيما حصل لإيفان"

-" ومن أنت لتمنعيني من الدخول؟ ابتعدي..."

ثم أمسكتني من ذراعي قائلة:" يا لك من مغرور وأناني لا تفكر إلا في نفسك، دائما ما تلحق به الأذى ولا تعتذر منه حتى، لكنه يسامحك، دائما ما تحدثه بأرذل العبارات -غبي، ثرثار، تافه- ماذا فعل كي تتعامل معه بهذه الطريقة المسيئة، لا تحترمه ولا تحترم اخلاصه ووفاءه لك، لا تحترم مشاعره وحزنه، حقا لم أرى أنانيا مثلك من قبل"

فأجبتها محتقرا كلامها:" آه نسيت، أنا من أظهرت حبي لإيفان مع أنني لا أحبه، أنا من تركته عندما كان يحتاجني، من الأناني هنا، المشكل الذي بيني وبين إيفان لا دخل لك فيه، اغربي عن وجهي"

-" أنا أحبه من قال لك أنني لا أحبه، لكنك أنت كدت تقتله بسبب حقدك هذا"

-" لن أجيبك، لأنه ليس من شأنك هذا"

دخلت فوجدته ممددا، تذكرت ذلك اليوم، تذكرت أن أمه كانت تجلس بجانبه تبكي، لكن أين هي الآن؟ لماذا فعلت كل ذلك وتخلت عن ابنها الوحيد؟ جلست على الأرض مستندا بالحائط، فركت شعري، لقد شعرت بالندم الشديد كدت أقتل الانسان الذي يحسبني أهم إنسان بالنسبة له، صحيح ما هذا الحقد

الذي أحسست به؟ لماذا لمته على جريمة لا دخل له بها؟ لماذا سأعاقبه؟ لماذا سيتحمل غضبي؟ حل المساء ولازال إيفان لم يستيقظ، ماذا سأفعل إن لم يستعد وعيه؟ شعرت بالأسى الشديد عندها.

استمرت غيبوبته لمدة يومين كاملين، عندما استفاق طلب رؤيتي أولا، أخبرتني الممرضة بذلك، ثم دخلت إلى الغرفة وأنا خجول من نفسي كثيرا.

." مرحبا ماثيو"

-" مرحبا إيفان، هل أنت بخير...؟" تأتأت قليلا ثم قلت:" أنا آسف كثيرا، لم يكن علي أن أغضب منك"

-" لا تأسف، لم تكن السبب فيما حدث لي، بل كانت أمي، اختنقت من فعلها الشنيع، اختنقت لأنني ابن امرأة مجرمة، تمنيت حقا لو مت بين يديك ماثيو"

-" لا تقل ذلك، أنا آسف ما كان علي أن أفعل بك ذلك"

-" هل تظن أنني لست حزينا؟ اذهب للمنزل وافتح محفظتي، وستجد الإجابة عن كل تساؤلاتك"

-" لقد عشنا معا لمدة طويلة، كانت تكفي لأثق بك، لكنني مع ذلك لمتك"

-" افتح محفظتي وستجد فيها ما وجدت في ذاك المنزل"

-" لكنك قلت لي أنك لم تجد شيئا"

-"كنت أحسب أنني وجدت ما يذكرني بأمي، لأنني مع ذلك أحسست أنني مشتاق إليها، لقد وجدت نفس القلادة التي وجدتها، لكن عندما قلت لي أن القلادة للعم آيزاك، عرفت أن هذا ليس بصدفة"

-"ماذا يحصل يا إيفان؟"

-" لابد أنها قتلت أباك وأبي أيضا، هذا هو الاستنتاج الذي توصلت إليه، عندما رأيت القلادة الثانية"

-" لا انتظر، ليس المهم أن قلادة أبي مع أمك، لكن لما القلادتين متشابهتين؟"

-" يعني أن أمي كانت...؟؟"

-" نعم سيلا كانت تعرف أبي من قبل...، إيفان سأذهب إلى المنزل"

ما هذا اللغز المحير؟ هل فعلا ما استنتجناه صحيح؟؟ لم أكن أعرف لماذا نفس القلادة كانت للاثنين؟ لماذا أخبرني أبي أن امي من أهدته هذه القلادة؟ لا يمكن أن تكون صدفة...

ذهبت للمنزل وفتحت المحفظة ووجدت الصورة التي وجدتها بياتريس، نعم كان حدسي صحيح عندما رأيت الصورة هذه أمي وهذا أبي، أتذكر جيدا أنني ضربت رأسي مع الحائط بقوة، لأرى أأنا أحلم أم ماذا؟ الصورة لأبي وأمي وكذلك سيلا أم إيفان، لا يمكن هذا، سألت نفسي كثيرا ما العلاقة التي كانت تجمعهم؟ لذا قررت أن أتوجه لجدي

-" جدي عليك أن تساعدني في مصيبتي هذه"

-" ماذا هناك يا بني؟"

-" انظر لهذه الصورة، الفتاة التي على جنب من هي؟"

-" آآآه إنها صورة قديمة لأمك وأبيك عندما كانوا في الجامعة، هذه صديقة آيزاك، درسا معا كانت صديقته منذ الطفولة، لكن افترقا عندما تزوجت ابنتي بالسيد آيزاك"

-" لا يمكن...، حقا لا يمكن..."

-"والدك يا بني انتقل للشمال ليتم دراساته الجامعية، كان يقطن في المدينة الغربية، وعندما توفي والديه في حادث سير قرر الرحيل من هناك"

أجبته وأنا اذرف الدموع:" هل كنت صغيرا لهذه الدرجة؟ لم أعلم حتى لماذا انتقل أبي إلى الشمال، ما كل هذا يا جدي؟ لماذا فعلت هذا في أمي؟"

." لا أعلم يا بني، ما السبب الذي سيجعلها تقوم بكل هذا؟"

علمت عندها أن السر يكمن في الماضي، وعلي أن أجمع خيوط هذه الحبكة لأكتشف ما كان بين أبي وسيلا راولي، لكن لماذا ستقتل أمي بعد كل هذه السنين؟ لكن أين هو الان؟ أهو ميت أم حي؟ كلها أسئلة شغلت بالي، وزادتني إصرارا للعودة لمسرح الجريمة...

ذهبت مسرعا لإيفان أخبره بما وجدت

-" مرحبا إيفان، لقد تعرفت على الشخصين اللذان في الصورة"

-" من هما؟"

-" والداي، وقد عرفت من جدي أن سيلا كانت صديقة أبي المقربة"

-" هل ما تقوله صحيح؟ هل تعرف أمي والديك منذ زمن"

-" نعم، لكن السؤال هو:لماذا فعلت أمك ذلك؟"

-" لابد أن هناك سببا جعل أمي تحقد على السيدة نتالي"

فانتفضت من مكاني قائلا:" إنه الحب...، نعم يا إيفان، أشك في هذا الأمر"

-" هل تقصد أن أمي كانت تحب أباك؟"

-" لا أعلم...، لكن تبقى فرضية وحسب"

-" وكيف سنكشف بقية القصة؟"

-" سنعود للشمال، سنقطن في منزلنا القديم، سننظفه ونصلح أثاثه، ونعيد طلاءه، المهم أننا سنعود لمسرح الجريمة"

-" لكنك يا ماثيو...، هل ستستطيع العيش هناك؟"

-" على أي حال فأنا لم أنساهم قط، لذا لا فرق بين هنا وهناك"

-" حسنا، أنا معك في الذي تراه مناسبا"

فابتسمت في وجهه قائلا:" لم يتبقى لك الكثير هنا، ثلاثة أيام فقط"

فأجابني ضاحكا:" جيد جدا، لنتفرغ للامتحانات الإشهادية"

-" استعد صحتك أولا"

دلفت علينا بياتريس وهي تحمل سلتها، لقد اعتادت اعداد الطعام لإيفان وهو في المستشفى، لكن كان الفضول يقتلها، يبدو أن إيفان لم يخبرها هذه المرة رغم أن علاقتهم تحسنت.

قالت وهي تعد طاولة الطعام الخاصة بالمستشفى:" ألن تخبراني...؟ ماذا كان في الصورة"

فقلت لايفان:" عجبا ألم تخبرها...؟"

." لا لم أخبرها هذه المرة رغم إصرارها"

." هيا...، أخبروني أريد أن أعرف"

فأجبتها والغصة تملأ صوتي:" الصورة كانت تجمع أمي وأبي...،وسيلا"

قالت والصدمة بادية على وجهها:" ماذا...؟ أكانت تعرفهم؟"

إيفان:" للاسف نعم، الصورة التقطت في المدينة الغربية"

." عذرا...، علي الذهاب، إيفان اهتم بنفسك جيدا، واطع أوامر السيدة بياتريس"

ذهبت متجها إلى جانب الوادي أفكر فيما جرى، لم أستطع أن أصدق أن الحقد يمكنه أن يصل بالانسان إلى هذا الحد، تدمير حياة أشخاص وتحويل حياتهم إلى جحيم، لما قد تتحول علاقة صداقة إلى عداوة لدرجة التفكير في القتل، لكنني قبل أيام كنت سأقتل صديقي المقرب الذي اعده بمثابة أخ لي.

الفصل الحادي عشر: أراكم في كل مكان

بعد مرور سنة...

وأخيرا شاءت الأقدار أن اعود لمسقط رأسي-مدينة الشمال-، كم كنت أتوق لهذه العودة التي سأسترجع بها ذكريات جميلة أمضيتها مع ناس رحلوا كانوا أعز ما أملك، لكن المرء لا يعرف قيمة الأشياء إلا إذا حرم منها.

تم قبولي في جامعة القانون المدني أنا وإيفان وبياتريس، نعم قررت الفتاة الالتحاق بنا بعد عدة محاولات لاقناع والديها، فكان اصرارها على مرافقتنا اقوى من أن يمنعها أحدهم، لكن كانت فرحتي أشد من فرحتهما لأنني سأعود لمنزلنا وسأستقر أنا وإيفان هناك.

قال إيفان بلهفة:" ماثيو لقد وصلنا، إنه منزلكم"

-" نعم لقد رأيته، يبدو عليه الحزن والتعاسة، آه كم أمضيت فيه من الأوقات التي لا تنسى"

-" هيا افتح الباب بسرعة، أتوق كثيرا لرؤية منزلكم"

-" أنا متردد يا إيفان، يخيل لي أنني سأفتح الباب وسأرى أمي تهرول نحوي فاتحة ذراعيها كي تضمني، وأختي من خلفها تناديني وابتسامتها على وجهها، أنا متأكد أنني سأراهم في كل مكان"

-" لكنهم دائما معك، هنا في قلبك...، لذا لا تحزن"

قلت له وأنا أدير المفتاح:" أين قررت تلك البلهاء الاستقرار"

-" داخل الحرم الجامعي"

-" جيد، حسنا لنهتم بترتيب المنزل"

دلفت بعدنا بياتريس فجأة قائلة:" لقد أتيت لمساعدتكم، لا تعجبوا لقد تركتم الباب مفتوحا ودخلت"

ثم أجابها إيفان:" آآه، لقد تركته مفتوحا"

-" مرحبا بك بياتريس، سأترككما لأتفقد غرفتي، عن إذنكما"

-" في الحقيقة يا ماثيو، جئت لاصطحابكما، لتساعداني على إيجاد منزل جيد، لم يعجبني العيش في السكن الجامعي"

-" إيفان يعرف المدينة جيدا، اذهبا انتما، لست في مزاج جيد لأتسكع معكما"

-" هيا أيتها الشقية، تتسرعين كثيرا، لنذهب قبل أن يغضب، فهو في حال سيئ"

." آسفة ماثيو، لم أقصد أن أزعجك"

-" لقد أزعجته بما فيه الكفاية، هيا قبل أن يحل المساء"

-" حسنا، آتية! آتية! "

ذهبا وتركاني هائما في أوهام أكاد أصدقها، صعدت الدرج ببطء شديد، التفتت ورائي لأرى صوفي وهي تسابقني لطاولة الطعام، وفي الأسفل أرى أمي وهي توبخها لكي تتوخى الحذر مخافة أن تسقط، ثم ترفع رأسها مبتسمة في وجهي قائلة:" أسرع يا بني! فنحن ننتظرك على السفرة"، كنت سأجيبها لكنها اختفت.

ذهبت إلى غرفتي، فتحت الخزانة فوجدت العلبة التي كنت أخبأ فيها ذكرياتي القديمة، عندما كانت الحياة مبتسمة في وجهي، وجدت صورتي أنا ووالداي عندما كنت صغيرا، أمعنت النظر فيها جيدا، ثم قلت في نفسي:" أين أنت يا أبي؟ عساك تبحث عني أيضا..."، تحررت الدمعة من عيني، لكنني مسحتها من وجنتي قائلا:" ليس الآن يا دموع، سأبكي عندما أودعهم أنا"

ثم تجولت في المنزل كله، كنت أراهم في كل مكان، أرى كم كنا عائلة سعيدة، متسائلا:" لماذا ساءت الأمور لهذه الدرجة؟ ماذا فعلنا لنستحق كل هذا؟"

تجهزت بعدها لتنظيف المنزل لأن إيفان سيتأخر كثيرا، وعندما عادا وجداني قد انتهيت فعلا،

إيفان:" ماذا؟؟ ماثيو هل فعلت كل هذا بمفردك؟ كان عليك أن تنتظرني لنتعاون كلانا، لكن بياتريس هي السبب"

بياتريس:" لا تقل هذا إيفان"

-" لقد تجولنا المدينة بأكملها، ولم يعجبك أي منزل"

فقلت لهما:" لا مشكلة لم أتعب كثيرا، وماذا ستفعل بياتريس الان؟ أين ستبيت؟"

-" هنا! ستبيت عندنا الليلة، لكنها غدا ستجد شقة تكتريها"

-" حسنا لا مشكلة، سأجهز لكما كوبا من القهوة"

قالت بخجل:" شكرا لك ماثيو، وعد أنني سأذهب غدا"

-" قلت لك لا مشكلة، يمكنك أن تبقي معنا إلى أن تجدي محل سكناك"

ثم قال إيفان بتهكم:" لو أنك بقيت في الغرب ودرست هناك، لكنك مصرة على اللحاق بنا"

-" كفاك من هذا إيفان، اريد أن أساعدكم على حل لغز الجريمة"

-" آآآه! لأننا لا نستطيع حل مشاكلنا من دونك"

-" تظلمني يا إيفان، لن أسامحك"

وبينما هما يتشاجران كعادتهما، كنت أجهز القهوة وأنا شارد في رائحة ألفتها عندما كنت صغيرا _ إنها رائحة طبخ امي_ لقد اشتقت لطبخها اللذيذ كثيرا...

ونحن نتناول قهوتنا اقترحت على إيفان الذهاب لزيارة المحقق جوناثان

." لقد فكرت يا إيفان في أن نزور السيد جوناثان، سيفرح للقائنا"

أبدى إعجابه بالفكرة قائلا:" فكرة جيدة، ومتى في رأيك الوقت مناسب لزيارته"

-" لا أعرف، لكنني سأذهب غدا بعد الجامعة وأسأل عنه في مركز الشرطة"

-" هل أذهب معك أيضا؟"

فأجابته بياتريس:" وأنا...؟ الشقة...؟"

فقال لها متذمرا:" يااااه، لقد نسيت أمرك تماما، ليتك بقيتي في قريتك"

-" لا مشكلة إيفان، سأذهب لوحدي أرتب معه موعدا لنزوره معا"

-" سأذهب معكما أليس كذلك؟"

-" ماثيو أكاد أجن من هاته، ستذهبين معنا، هل هذا يرضيك؟"

بوجه عبوس تجيبه بياتريس:" شكرا لكما"

-" ماثيو هل سنحدثه عما وجدناه في بيت جدي"

-" من الضروري جدا إخباره، سيساعدنا كثيرا في فك رموز هذه الجريمة"

حل الليل، واستأذنتهما بالانصراف إلى غرفتي لأنني كنت منهكا كثيرا، استلقيت على سريري، ثم تأملت في سقف غرفتي الذي كان كشاشة السينما بالنسبة لي، فقد كنت أشاهد حينها كل

تفاصيل الماضي الجميل، كأنه شريط قصير، ثم نمت نومة الطفل الصغير، ليلة هادئة خالية من الكوابيس.

استيقظت باكرا مع السادسة صباحا، لأجهز نفسي فإنه أول يوم لي في الجامعة، مررت على غرفة صوفي، فوجدت بياتريس نائمة على سرير أختي، لكنني لم أنزعج منها كعادتي بل ابتسمت ابتسامة بريئة، كأنها وقعت من الطابق الحادي عشر لقد كانت مبعثرة جدا، لقد ذكرتني بأختي صوفي، ثم قررت تفقد حال إيفان أيضا فأنا لم أكثرت له ليلة البارحة أين سينام الشقي؟ لكنني وجدته نائما في عرفة المعيشة على الكنبة، منكمشا من شدة البرد، ثم ذهبت إليه وأيقظته لكي يجهز نفسه أيضا، لكنه بصعوبة وبإلحاح شديد مني استطاع النهوض من مكانه.

أعددت طعام الفطور، وجهزت الطاولة، والتحقت بنا بياتريس بعد أن جهزت نفسها، ومن ثم توجهنا للجامعة، لقد كانت مكانا واسعا جدا وكبيرا، ذات أروقة متعددة، إن لم تكن تجيد قراءة الخرائط ستتوه فيها لا محالة.

همس لي إيفان:" صدقني يا ماثيو، لم أفهم كلمة واحدة مما قاله الأستاذ"

-" وأنا كذلك، لقد غلب عليّ النوم داخل المدرج، ولم أكن أسمع أي شيء"

-" حقا ما تقوله يا ماثيو، وأنا كذلك، من شدة النوم لم أستطع أن أفتح عيني"

-" أين بياتريس؟"

-" لابد أنها تسللت وهربت من المحاضرة، يمكنك الذهاب إلى السيد جوناثان، سأبحث عنها"

وبينما نحن نتجهز للخروج أيضا، أفزعته قائلا:" توقف...!"

-" ماذا؟ هل هناك خطب ما؟"

كنت قد فقدت توازني و تمسكت به قائلا:" إيفان، أنا أشعر بدوار شديد، رأسي سينفجر"

قال إيفان بخوف" هل آخذك للمستشفى؟"

-" لا خذني فقط للمنزل، أريد الذهاب إلى المنزل"

-" حسنا، هيا تمسك بي"

خرجنا من المدرج، ورغم أن الهواء كان نقيا، والجو جميل في الخارج، لكن حالي لم يتحسن هذه المرة.

ومن العدم ظهر الوجه الشيطاني مبتسما بخبث:" يبدو أنك أصبحت ضعيفا جدا"

بصوت مرتفع وغاضب أجبته:" أنت مجددا، ابتعد عني، لا تلاحقني أينما ذهبت"

إيفان:" من هذا الذي يلاحقك يا ماثيو"

-" قل له أن يذهب، قل له يبتعد عني، أنا لا أريده، سوف أقتله، سوف أقتله إيفان"

إيفان:" ماثيو، ماذا أصابك؟"

لم أجبه لأنني فعلا كنت أختنق والالم يزداد شدة، كنت فقط انظر إلى بشاعة ذلك المسخ الذي لا يمل من ملاحقتي ويتربص اللحظات التي أكون فيها غاضبا.

قال فيليب بمكر:" ماثيو...، هل أنت خائف مني بعد كل هذا؟ المهم جئت لكي أقول لك أنني ضقت ضرعا منك ومن قضيتك التي لن تنتهي، انظر إلي...، انظر إلي...، عليك أن تذهب للسيد جوناثان الان، انت وهذا الاحمق، وستحكيان له ما وجدتما"

ثم ذهب فجأة كما ظهر، هدأت وذهب الوجع، بعد أن استقلينا سيارة الاجرة، أمرت سائق سيارة الأجرة أن يأخذنا لمخفر الشرطة.

-" ماثيو، هل أنت بخير؟"

-" سنذهب معا، إلى مخفر الشرطة"

-" أكيد...، المهم أن تكون بخير"

-" أصبحت بخير... "

-" حسنا فلنذهب...، لكن بياتريس؟؟"

-" سنذهب لمخفر الشرطة، ونعود لها لاحقا، لن نتأخر، كما أنها لا تعرف المدينة جيدا، لن تذهب لأي مكان ستنتظرنا في المنزل"

وصلنا لمخفر الشرطة، وسألنا البواب عن مكتب السيد جوناثان، لكنه بدأ بالضحك، لم نفهم ما المضحك في سؤالنا؟

-" عفوا، هل تسألان عن السيد جوناثان البيرت؟"

-" نعم، المحقق جوناثان البيرت، أليس موجودا هنا؟"

-" للأسف السيد جوناثان مات إثر حادثة في المدينة الغربية"

صعقت من الخبر، انهارت ركائزي وتبخر الامل الذي كنت احمله منذ مجيئه إلينا ووعده بأنه سيجد القاتل، ماذا حدث؟ كيف حصل هذا؟.

قلت في دهشة:"ماذا تقول يا سيدي؟" ثم توجهت بنظري لإيفان:" ماذا يقول يا إيفان؟"

لكن إيفان قال لي بحسرة:" لهذا السبب لم يعد مرة أخرى"

قلت للشرطي:" متى حدث هذا؟"

-" منذ أربع سنوات، لقد ألقي القبض على صاحب السيارة، و حكم عليه ب 12سنة"

-" هل تعرف اسمه؟"

-" نعم، لقد كان اسمه آيزاك آزلبير..."

لم أصدق ما أسمعه أبي في السجن، أبي قتل المحقق...، لماذا يا ترى؟ ما الهدف...؟

فقلت:" ماذا تقول؟ هل هذا صحيح؟"

أمسك بي إيفان قائلا:" ماثيو اهدأ أرجوك..." ثم توجه بنظره إلى البواب:" سيدي في أي سجن يكون هو الان؟"

-" لا أعلم، لكن سيكون غالبا في السجن المدني للمدينة"

إيفان:" هل الحادثة وقعت في الغرب؟"

." لا أعرف الكثير من التفاصيل"

-" هيا ماثيو، لنذهب"

لقد كنت محطما جدا، أمسكت رأسي وبدأت بالصراخ، لم أستطع أن أتمالك نفسي :" لا أستطيع أن أصدق، لماذا كل هذه الصدف تطاردني؟ لماذا يا إيفان؟"

ومن ثمة لحقت بنا بياتريس، ثم قالت:" ماذا يجري هنا؟ لماذا يصرخ ماثيو؟"

-" كيف عرفت أننا هنا؟"

-" لقد أخبرتماني البارحة أن ماثيو سيذهب لمخفر الشرطة، لكن ماذا يجري؟"

قال لها إيفان:" حسنا، من أين سأبدأ؟ لقد مات السيد جوناثان منذ أربع سنوات"

-" ما هذه الاخبار يا إيفان؟ كيف حصل هذا؟"

قلت لإيفان وأنا أمسك برأسي:" إيفان، فلنذهب للمنزل، لا أستطيع تمالك نفسي"

-" حسنا، فلنذهب"

كنت أشعر بضيق شديد، لم أكن أستوعب ما يحصل معي، توالت الاحداث، هل أفرح لأنني وجدت أبي، أم أحزن لأنه قاتل؟ ثم ظهر فيليب وأنا مسطح على سريري ولكنه كان غاضبا جدا.

-"ماذا ستفعل الان؟ هل ستبقى ممدا على هذا السرير؟ أريد أن أرى كيف ستتقطع بك السبل عندما تعلم أن أباك له علاقة بالجريمة"

قلت وأنا فاقد للامل:" نعم لأبي علاقة بالجريمة..."

ثم لاحظ إيفان أنني أتكلم وأنا شارد مع نفسي

-" هل تفكر في أمر ما؟"

-" عندما أجد أبي سأعرف منه الحقيقة، لابد أنه يعرف كل شيء..."

-" من الصدمة لم نسأل الشرطي عن اي جديد في قضية آزلبير"

-" أبي هو الذي سيخبرني..."

الفصل الثاني عشر: زيارة في السجن

أفكر دائما في حياتي، وغالبا ما أسألها" لماذا كُتبت فصول حياتي بالدماء؟ لماذا كانت الصدف قاسية على قلبي؟ أهذا هو المغزى من وجودي؟ ام أنني عبرة للذي لا يعترف بالنعم التي تحيط به، أم هذا ثأر الذين آذيتهم فهم ينتقمون؟" لكنني لم أتلقى جوابا منها، فهي دائمة الابتسام، حتى عندما تقسو تبتسم، تبتسم بغرابة لا أفهمها أهي تسخر مني هكذا أم أنها تواسيني بابتسامتها هذه وتحثني على الصبر.

-"لو كنت مكانك لتخلصت من الجميع بطريقة لن يتخيلها عقلك الصغير"

هذا ما قاله لي فيليب وأنا أتأمل في سقف الغرفة ليلا.

أجبته بهدوء:" فيليب، دعني وشأني، لا أود سماع أفكارك الشيطانية، وخصوصا الان"

-" اسمعني..."

-" لا...، لا أريد"

-" ستسمع، وإن كنت لا تريد"

-" لقد أزعجتني كثيرا، قل ما عندك"

-"إيفان، آيزاك، سيلا، عليك أن تتخلص من الجميع"

-" يا لك من داهية في الشر"

-" قلت لك أنصت إليّ ولن تندم"

." فقط النظر إلى وجهك يشعرني بالندم"

ثم ناديت إيفان الى غرفتي

-" إيفان، لن أذهب إلى الجامعة غدا"

-" لماذا؟"

-" سأبحث عن أبي، وسأذهب لوحدي"

-" لماذا ستذهب بدوني؟"

-" عليك أن تحل مشكلة بياتريس في السكن"

-" أحلها في حين آخر، سأذهب معك"

-" سأذهب وحدي، أظن أنك لن تتحمل ما ستسمعه هناك"

-" وهل ستتحمل أنت؟ أظن أن ما سمعته أنت البارحة كافي ليشعل نار الانتقام داخلك"

-" أظن أن أمك ليست الطرف الوحيد في قضيتنا، يبدو أن نار الانتقام ستشتعل داخلك أيضا"

-" حسنا، سأنتظرك في المنزل المساء"

-" فلنكن وحدنا، على بياتريس ألا تكون هنا"

-" سأحل المشكلة، نلتقي في المساء"

في صباح اليوم التالي أخذت سيارة اجرة من أمام المنزل، وأخبرته أن يأخذني لسجن المدينة، وعندما وصلت، سألت البواب الذي كان هناك، ثم أشار إلى مكتب استقبال الزيارات لأسأل عن والدي، وجدت هناك رجلا، عندما رآني ابتسم لي مُرحبا

-" مرحبا، تفضل، بماذا يمكنني أن أساعدك؟"

-" أريد أن أسأل عن أحدهم اسمه إيزاك آزلبير"

-" دعني انظر في الملفات، قلت إيزاك آزلبير؟؟"

-" نعم سيدي، إنه أبي ولم أره منذ 5 سنوات تقريبا"

-" آه، ها قد وجدت الملف الخاص به، حسنا! نعم إنه هنا"

-" هل يمكنني أن أراه؟"

-" نعم يمكن ذلك، أولا سآخذ بطاقة تعريفك "،" هيا فلنذهب لقاعة الزيارات، لماذا لم تأتي لزيارته من قبل؟ سجل زياراته خال تماما"

-" لأنني لم أكن أعرف أنه في السجن، هل سأراه الآن؟"

-" نعم، سأخبرهم لينادوه"

لقد كنت متوترا جدا، فأنا لم أرى والدي منذ 5 سنوات، والدي الذي لم أكن اعرف أهو ميت أم حي، اختلطت مشاعر الاشتياق، وحرقة الفراق، وصداع التساؤلات التي تحيرني منذ مدة طويلة، لقد وصل أبي وهو مكبل اليدين ويرافقه السجان، لم أكد أصدق عيني، أهذا أبي؟ من هذا الشخص رث الثياب طويل الشعر واللحية، لقد تغير كثيرا.

رفع رأسه لتتقابل أعيننا وتفيض بالدموع، بدا عليه أنه غير مصدق لما يراه، كانت الصدمة قوية على كلينا، ما إن رفع عنه قيده، هرول إلي وضمني إليه، كنت أظن أنه لن يعرفني لكنه عرفني ومن الوهلة الأولى، كيف لا يعرفني فهو أبي في النهاية، أبي الذي حرمتني منه الايام لمدة طويلة.

تقاطرت دموعه على كتفي كالمطر الغزير، إنه أبي الذي كان يقص علي قصصه المشوقة...، لازلت لا أصدق أنني حقا أعانقه الان.

قال لي وهو يبكي كالطفل الصغير:" آآآه يا ابني، لو تعلم كم اشتقت أليك أنت وأختك صوفي، لقد كبرت أيها الشقي"

-" وأنا كذلك يا أبي، منذ أن علمت أنك لم تقتل في تلك الجريمة، وأنا على أمل أن ألقاك يوما، لقد اشتقت لحديثك الشيق، لكنني تضايقت عندما علمت أنك هنا"

-" أفهم شعورك جيدا، ليتني لم أسافر ذلك اليوم، أشعر بالندم الشديد، لو كنت هناك لاستطعت حماية أمك من الهلاك، أو كنت سأهلك معها، عندما علمت أنكما لم تموتا في تلك الجريمة فرحت جدا، كنت على يقين أنكما في الغرب عند جدك، لكنني اصطدمت بالرجل، وها أنا في السجن الآن"

-" أبي لا تحزن، المهم أننا اجتمعنا من جديد"

لكن انتبهت لقوله جيدا وقلت له:" أكنت مسافر يوم الحادثة؟"

." نعم كنت في مهمة، لكن كيف حال صوفيا؟ أهي بخير؟ لماذا لم تأت معك؟"

صُدمت من سؤال أبي، كيف أنه لا يعلم بموت صوفي، لم أكن أعلم ماذا سأقول له

-" أبي...! ألا تعلم ماذا حدث لصوفي؟"

-" يا بني ماذا حدث لها؟ أهي ليست بخير؟"

-" أبي...! صوفي لقد ماتت ذلك اليوم"

-" لا يا بني لقد وجدوا جثة أمك فقط، أهي ليست معك الآن"

فقلت له باكيا:" يا أبي، صوفي لقد ماتت أمام ناظري، يا ليتني لم أرى ذلك المنظر القبيح"

-" لا يمكن، ماثيو ماذا تقول؟ لا يمكن لابنتي حبيبتي أن تذهب هكذا دون أن تودعني أيضا، ماثيو هل أنت متأكد مما تقول؟"

-" أبي، أرجوك لا تفعل هذا، لقد ماتت منذ مدة طويلة، كنت أظن أنك تعلم هذا...،"

ثم تدخل الامن وكبلوه بالأصفاد لأن أبي دخل في حالة هيستيرية، لا أقدر أن أصفها، وأخبروني أن موعد الزيارة قد انتهى، أعلم أنني لم أسأله عما يجول في داخلي ولم أخبره بما أنوي حقا أن أخبره، لكن عندما رأيته أمامي كنت أريد فقط أن نتبادل أطراف الحديث.

قال الشرطي:" ماذا قلت له يا ماثيو لكي يصبح على هذه الحالة"

-" سيدي...، لقد علم بموت أختي، لو أخبرته كيف ماتت لكان أشد عليه"

-" كيف ماتت؟ سأعرف كيف أخبره أنا"

ثم أخبرته بالتفصيل عن الحادثة التي توفيت فيها صوفيا، وأبدى استياءا كبيرا وقال:" عندما يتحول الانسان إلى حيوان هكذا تكون النتيجة، فالحيوان أرحم إن صح التعبير"

ثم ذهبت إلى الجامعة، لأنه كان لايزال لدي الوقت لأحضر المحاضرة الثانية، وعندها التقيت إيفان،

-" ماثيو، لقد عدت باكرا، هل حدث خطب ما؟ ألم تجد أباك؟"

قلت له باستياء شديد:" لقد وجدته يا إيفان، لكنني صدمت لعدم علمه بموت أختي صوفي "

-" ماذا ألم يكن يعلم حقا؟ وماذا هناك أيضا؟"

-" لم أستطع أن أسأله عن أي شيء، لقد كان مصدوما جدا بخير وفاتها، كان يصرخ، ويضرب رأسه كان كالثور الهائج، لو لم توقفه الشرطة هناك، لكان قد قتل نفسه، عليّ أن أعود لزيارته لاحقا، أخاف أن يقدم على قتل نفسه"

ربت على كتفي:" لا تقل هكذا، لن يفعل أنا متأكد، لا تخف يا ماثيو، على الأقل يعرف أنك لازلت على قيد الحياة"

-" أهذا ما تظن لن يفعل صحيح، لأنه التقاني بعد فراق طويل"

-" لا تقلق سنعود كلانا لزيارته المرة القادمة...، أرى من الاحسن أن نتجول قليلا"

-" حسنا لنذهب..."

ذهبت أنا وإيفان و لحقت بنا بياتريس، تجولنا في أرجاء مدينة الشمال ووجدنا لبياتريس شقة جميلة، لكنها تحتاج بعضا من الإصلاحات، لقد كانت قريبة من الشارع الذي تتواجد فيه الجامعة لكيلا تضل الطريق، ثم ذهبنا لمطعم قريب لأننا كنا جوعى...

-" بياتريس، لقد قررنا أنا وماثيو أن تنامي اليوم في شقتك"

-" هل هذا صحيح؟ لكنها غير مجهزة"

-" إيفان لا تبدأ مجددا، لا إنه يمزح فقط، سوف تذهبين لشقتك عندما تكون جاهزة"

-" ماثيو يا لك من مخادع، لقد أخبرتني أنك لا تريدها في المنزل الليلة"

-" ماذا؟ هل أزعجتكم؟ حسنا سأبحث عن نزل أستقر فيه إلى أن تنتهي الاشغال في الشقة"

قلت لها:" لا ستبقي معنا إلى أن يصبح منزلك جاهزا، السيد إيفان يمزح كعادته"

لكنها انزعجت وقالت:" لماذا لا تريدانني أن أعرف عن قضيتكما شيئا؟ يبدو أنكما لا تحبذان تواجدي"

ثم انسحبت من مجلسنا وقررت الرحيل، رغم أنها لا تعرف المدينة جيدا حتى طريق العودة إلى المنزل.

ناداها إيفان قائلا:" بياتريس، إلى أين أنت ذاهبة؟ ماثيو ماذا سنفعل؟"

-" ستتبعها، هيا تحرك..."

لكنها ذهبت بسرعة واختفت،

عاد إيفان إلى المطعم وقال لي:" لم أجدها أين عساها تذهب؟"

أجبته معاتبا:" ماذا فعلت؟ لماذا قلت لها ذلك؟ مزاحك ثقيل ولا يتقبله احد"

-" لم أقصد ذلك...، أين عساها أن تذهب؟ فهي لا تعرف المدينة جيدا"

-" اذهب أنت من هنا، وانا من هنا"

-" ماثيو، يبدو أنها ذهبت لشقتها، لابد أنها قررت المبيت هناك"

-" هيا فلنذهب لعلنا نجدها"

وصلنا هناك، ثم طرقنا الباب، وفتحت لنا، فقال لها إيفان وهو يصرخ في وجهها

-" أين ذهبت هكذا بسرعة؟ لقد أخفتنا"

-" لماذا تبعتماني، لقد تركتكما تحلان مشاكلكما، وقررت ألا أتدخل في مسائلكما الشخصية"

فقلت متهكما:" إيفان تفضل لندخل، يبدو أننا سنبقى أمام الباب"

-" حسنا يا صديقي، سأدخل"

لكنها قالت غاضبة" لقد فقدتما عقلكما حقا"

لكنني تجاهلت صراخها:" أتعلم يا إيفان، لقد قررت أن أبيت هنا في هذه الشقة اليوم"

-" حسنا، أنا سأنام على هذه الاريكة القديمة، وأنت نم هناك"

-" سأفقد أعصابي بسبكما"

لكن إيفان لم يصبر إلى أن انفجر غاصبا:" أنت التي ستفقدينا أعصابنا، ذهبت هكذا ولم تفكري، رغم أنك لا تعرفين المدينة جيدا، لولا أنني فكرت أنك ستكونين هنا، لو لم يكن يهمنا أمرك، لماذا إذا بحثنا لك عن هذه الشقة؟ ولهذا نحن قررنا أننا جميعا سننام هنا"

-" حسنا لم أقل شيئا، يوجد بعض الاغطية في تلك الغرفة، سأحضرها"

-" ماثيو، ستكون متسخة للغاية، لماذا لا نذهب للمنزل؟"

فبدى علي الندم:" لم أفكر قبل أن أتكلم، ماذا سنفعل؟ سننام هنا..."

فأجابني:" لحسن حظنا، أن الغد يوم عطلة، سأكمل نومي في المنزل"

-" لقد وجدت غطاءين فقط"

-" لا مشكلة، سنتقاسم أنا وإيفان الغطاء، هيا أنت فلتأتي هنا، لتنام هي على الاريكة"

لقد كانت ليلة هادئة جدا، أشعلنا المدفأة بأعواد كانت مرمية هناك، وجلسنا نسترجع أيام طفولتنا التي أمضيناها معا، أيام المدرسة، وقرب الشلال، ولم ننسى مغامرات إيفان التي لا تنتهي كل يوم في كهف أو مغارة...

رغم ذلك لم أنسى ما حصل ذلك اليوم،لقد أحبطتني رؤية أبي في تلك الحالة، لم أكن أعلم أنه لا يعرف بشأن صوفيا، كنت مشوشا جدا وقلقا عليه في أن يقدم على فعل لا يسر، لكن مع ذلك هناك بصيص أمل استطعت رؤيته في النهاية.

****

أن تكتشف أن حياتك التي عشتها عبارة عن كذبة، لا شيئ حقيقي حتى من كنت تظن أنهم لن يكذبوا عليك مطلقا، أشخاص كنت تثق بهم.

الكذب هو أن تخدع شخصا وتزور الحقيقة التي بإمكانها أن تغير حياته أو أن ترسله إلى الجحيم، أن تغرس في قلبه حقدا كبيرا هو في غنى عنه، ويمكن بذلك أن يفقده أعز ما كان يملك، يمكن للكلمات الزائفة أن تحطم الروابط الحقيقية وتترك أثرا عميقا من الالم والفراغ.

قررت بعد شهر الذهاب لزيارة أبي مجددا، فذهبت خلسة دون أن أقول شيئا لإيفان، وهذه المرة سأستفسر منه عن كل شيء، لابد أنه يملك جواب، فأنا لم أصدقه عندما قال أنه كان مسافرا ودمه كان على الكرسي المتأرجح.

بعد مروري من المراقبة، جلست على المقعد الخاص بالزوار حتى جاء أبي برفقة السجان، لقد كان على حاله البئيس ويظهر عليه الحزن أكثر...

بعد عناق طويل قلت لأبي:"أبي كيف حالك...؟"

-" أنا بخير، أنا آسف بشأن أختك، لقد عانيت كثيرا، لو كنت هناك ذلك اليوم لما حصل ما حصل..."

-" لقد ذهبت...، فلا حزنك ولا دموعك سترجعها للحياة"

." للأسف...، لقد كانت فتاتا بريئة، فتاتي الصغيرة..."

بعد صمت لم يدم طويلا قلت له:" لكنك تكذب يا أبي لقد كنت هناك...، لقد كنت في المنزل يومها..."

قال بعد أن ابتسم ابتسامة خفيفة:" يبدو أنك كبرت وأصبحت يافعا لتعرف أنني أكذب"

." أعرف أكثر مما تظن يا أبي..."

-" نعم يا بني... يبدو هذا جليا"

سألته:" هل تعرف سيلا راولي؟ وهل كانت تعرف أمي أيضا؟"

-" ماثيو؟ من أين تعرف هذه السيدة؟"

-" إنها المشتبه به الرئيسي في قضية مقتل أمي وزوجها السيد لينكل، عليّ أن أجدها يا أبي، هل تعرف أين يمكنني أن أجدها؟"

-" هل هذا صحيح...؟ كيف عرفت...؟"

-" أبي...، إن المحقق الذي مات في حادث السير ذاك، لقد كان السيد جوناثان الذي كان يتحرى في هذه الجريمة، وأنت وهي المشتبهان الرئيسيان"

قال والعبرات تتزاحم داخل عينيه:" أيمكن هذا يا بني...؟ أأنا أقتل المرأة التي أحببتها من كل قلبي، وحاربت من أجلها كثيرا، وأنا لم أقصد قتله يا بني، لقد كان مسرعا جدا، وأنا أيضا كذلك، عندما علمت أنكما في الغرب، لم أكن أعلم حتى أن ابنتي قد ماتت، ما كان يهمني حينها هو أنتما؟"

-" يا أبي ستصيبني بالجنون، عندما أتى السيد جوناثان ليبلغنا عن وفاة والد إيفان، ذهب إلى المدينة الغربية، لكنه لم يعد بعد

ذلك...، وأخبرني جدي عن قصة الصداقة التي كانت تجمعك بالسيدة سيلا، لكن لماذا ستقتل أمي بعد مرور سنوات"

كان أبي قد بدأ بالبكاء، ثم قال:" لتنتقم منها..."

-" لماذا ستنتقم منها؟ هل هناك حساب قديم بينكم؟"

-"تم حبسي لمدة 11 شهرا في غرفة مظلمة، في ذلك الوقت لم أكن أعرف من يحتجزني، كان يحضر لي الطعام والماء، ثم يذهب بعدها، ذات يوم يا بني وجدت باب الغرفة مفتوحا، ثم باب الكوخ كان مفتوحا أيضا، استغربت كثيرا لكنني استغليت الفرصة وهربت، ثم أمام المنزل وجدت سيارة، والغريب في الامر لم تكن مقفلة، ركبتها ثم قمت بربط سلكين لكي أشغّل المحرك، ثم ذهبت إلى منزلي، بعدها علمت من أحد جيراننا أن زوجتي قد قتلت، وأنكما ذهبتما للغرب عند جدكما، ثم سلكت الطريق المتوجه صوب المدينة الغربية، وعندما اقتربت من الوصول هناك، أحسست بالعياء الشديد، فقدت وعيي لأجد نفسي في المشفى ثم في السجن"

-" هذا غريب حقا يا أبي..."

-" اتذكر في ذلك اليوم أن السيد لينكل قام بزيارتي ليجد حلا لمشكلته مع البنك، بعد ذلك رن الجرس حتى وجدت نفسي في

تلك الغرفة، حقا لا أتذكر شيئا، وهذا ما ذكرته للشرطة عندما استجوبوني في القضية"

-" كيف استطاعت فعل كل هذا؟ حقا لا أستطيع استعاب الامر..."

-" كيف عرفت أنت أنها هي الفاعلة؟ "

-" لقد وجدت الدليل في بيت جد إيفان، يتواجد في قرية في ضواحي المدينة الغربية"

-" لا اصدق أنها هي من فعلت كل هذا؟ أكل هذا حقد"

قلت له:" لابد أنها كانت تريد التخلص منك أيضا..." نظرت إليه ثم قلت:" أنت تعلم لماذا فعلت ذلك؟ أنت تعرف كل شيء، أخبرني ماذا تعرف..."

-" بماذا سأخبرك يا بني...؟"

-" أنت تكذب منذ البداية...، أنت تعرف كل شيء، أنا لست الشرطة لتحميها مني، أنا ابنك ماثيو"

قال لي بحرقة:" أحميها...، أنا أحميك منها يا بني، أحمي إيفان منها، فأنتما كل ما أملك في هذه الدنيا"

-"إيفان...، هل إيفان صديقي...؟"

-" نعم...، غايتي يا بني أن احمي ما تبقى من عائلتي...، فأنا ليس لي أحد غيركما، ولتعلم يا بني أنني ما قلته كان صحيحا، لقد حبستني وتسببت لي في الحادثة، لقد كانت تعلم أن المحقق يبحث في أمرها، لم أكذب عليك يابني..."

-" لكنك طيلة الوقت تنفي أنك تعرف شيئا"

-" لكي تكون بخير، إن أصابك مكروه لن أسامح نفسي، يكفي أنني فقدت حب حياتي وفلذة كبدي"

-" أخبرني...، ماذا تعرف؟ لماذا فعلتْ بنا كل هذا؟"

-" لستَ مستعدا لتسمع هذا مني...، لكنني أنا السبب في كل هذا، أنا أستحق أن أكون في مكان نتالي، المسكينة ذنبها أنها كانت طيبة جدا، تثق بي وتصدقني، وحتى صوفيا ليس لها أي ذنب لتعاقب هكذا، وانت أيضا يا بني سامحني أرجوك، لكنني أعلم أن إيفان لن يسامحني أبدا..."

-" لماذا إيفان...؟ لماذا لن يسامحك؟"

هنا كان وقت الزيارة قد انتهى، ولم يستطع أبي أن يجيبني عن أهم سؤال، اكتفى بمعانقتي وتوديعي، ولم أعلم من والدي ما سبب هذا الانتقام.

وقبل أن يذهبوا به إلى زنزانته، استدرت إليه قائلا:" إن لم تخبرني بالحقيقة في المرة المقبلة، فاعلم أنني سأكتشف الحقيقة عاجلا أم آجلا، وعندما أعلم لا تلمني يا أبي على ما سأفعله "

ثم ذهبت إلى المنزل الذي بدأ فيه كل شيء، أمعنت النظر جيدا في أرجاءه، تذكرت الايام الخوالي التي لم أكن أعرف فيها للضنك معنى، لكن يبدو لي أن النهاية لاحت في الأفق، وكل منا سيأخذ جزاءه عما فعل ليتوقف عصر الظلام، لأن الأبرياء هم من يفوزون ولو بعد حين...

عاد إيفان بعدي وانتبه لوجودي في المنزل ثم سألني قائلا:" ماثيو...، أين كنت طوال النهار؟ كنت أعتقد أنك سبقتني للجامعة"

-" أين هي بياتريس؟ لماذا هي ليست معك؟"

-" إنها في بيتها، هل نسيت لقد انتهت الاشغال، لقد أخذت اغراضها وانتقلت اليوم، أين كنت أنت؟ لم أرك اليوم بأكمله"

-" لقد زرت أبي في السجن ثم عدت، ولم أجدكما في المنزل"

قال معاتبا إياي:" ألم نتفق على أن نذهب سوية؟"

لكنني قلت له:" أخاف عليك يا إيفان، أخاف أن أفقدك أنت أيضا"، ثم عانقته كأنه سيذهب مني فعلا

قال متسغربا:" لماذا تقول هكذا؟"

-" سأعود عند أبي لأنه لم يجبني على سؤالي، رغم أنني علي الانتظار لشهر آخر"

-" ألم يخبرك بشيء هذه المرة ايضا؟"

-" لقد سجنته لمدة أحد عشر شهرا، ودبرت الحادث الذي بسببه أبي الآن في السجن، واكد لي أنها فعلت كل هذا بسبب الانتقام"

-" أصبحت أخجل من أنها أمي...، لم اعد أتحمل حتى أن أسمع اسمها"

-" سأعود في الموعد القادم، وأرغمه على أن يخبرني بكل شيء"

-" هل أذهب معك ماثيو؟"

-" سآخذك معي هذه المرة..."

-" أتعلم لقد ذهبت اليوم لزيارة قبر أبي، لم أكن أعلم أنني سأشتاق إليه هكذا، أشعر بالذنب تجاهه لأنني كنت أكرهه وأنا صغير، لم أكن أعلم أنه كان يعاني"

قلت له أواسيه:" لا تلم نفسك...، كنا صغارا لنفهم ما كان يجري حولنا"

مر شهر وحان موعد الزيارة ، ذهبت أنا وإيفان كما هو متفق لزيارة أبي، لقد كان إيفان متحمسا ومتشوقا كثيرا لرؤيته، لكن أبي عندما رآه تفاجئ كثيرا، ورُسِمت على محياه علامة تعجب واستغراب، عانقه وبدأ يبكي.

قلت لابي:" هذا إيفان صديق الطفولة"

-" لقد عرفته..."

قال إيفان وعلامات التعجب تملأ محياه:" تشرفت بمعرفتك سيدي..."

قلت:" أبي لقد جئنا اليوم لتخبرنا الحقيقة"

لكن أبي كان له جواب آخر:" هل لهذا السبب تزورني في السجن بانتظام؟ إذا عرفت لن تزورني بعدها أليس كذلك؟"

إيفان:" لا يا عم...، ماثيو يحبك كثيرا، يحكي عنك دائما لدرجة أنني أحببتك قبل أن ألقاك"

-" إيفان...! هل يمكنني أن أعانقك مرة أخرى؟"

ثم عانقه بشدة، وأبصرت عيني دموع أبي تتساقط على كتفي إيفان مرة أخرى، وبعدها جلس أبي على كرسيه لثواني، ثم قال له:" أعرف أنك ستسامحني، رغم أنني لا أستحق"

-" لماذا عليّ أن أسامحك سيد آيزاك؟"

لكن أبي قال له:" إيفان هل يمكنني أن أكلم ماثيو على انفراد" وافق إيفان وذهب، ثم أكمل قوله:" لقد كتبت لك هذه الرسالة، ولكن عليك أن تقرأها لوحدك، لا يكون معك أحد، لم أستطع أن أواجهك بالحقيقة يا بني، إن استطعت أن تسامحني بعد أن تعرف الحقيقة فسامحني يا بني، والآن أنا سأذهب"

-" أبي لازال وقت الزيارة لم ينتهي، أرجوك أبق قليلا"

ثم نادى على الشرطي، ليدخله لزنزانته، وعدت أنا وإيفان إلى المنزل

قال لي إيفان:" لقد كانت تصرفات السيد آيزاك غريبة جدا، لكنه لم يحكي لنا أي شيء"

-" أظن أن الامر يتعلق بنا نحن الاثنين..."

-" هل يمكن أن نكون نحن السبب؟ لكن لماذا؟ نحن لم نفعل أي شيء"

-" إيفان...! سأذهب لغرفتي أريد أن ارتاح قليلا وارتب أفكاري"

-" حسنا ماثيو...، وأنا أيضا سأذهب لغرفتي"

-" شكرا لك... "

ذهبت إلى غرفتي كنت مترددا وخائفا من فحوى الرسالة، لكنني عندما فتحتها وبدأت بقراءتها، تمنيت لو أنني لم أقرأها، تمنيت لو أنني لم أسأل، تمنيت لو نسيت أمر هذه القضية إلى الابد، ففي بعض الاحيان يكون الجهل نعمة.

كانت الرسالة تقول:

" مرحبا أبني ماثيو؛

قررت في هذا الوقت من الليل أن أكتب لك هذا الخطاب ، أعلم جيدا أنك أصبت بالهم والحزن في الآونة الأخيرة، وذلك لتجد من فعل السوء بأمك نتالي، وعملت جاهدا حتى اكتسفت الحقيقة، لكنك التجأت إلي لتعلم الحقيقة كاملة، وأنا لا أستطيع أن أواجه ابني بهذه الحقيقة التي ستغير حياته من الأسوأ إلى الأشد

سوءا، فأرجو بعد أن تعرف الحقيقة أن تسامحني رغم أنني لا أستحق ذلك.

كنت أنا وسيلا راولي أصدقاء منذ الطفولة، كنا صديقين مقربين جدا، إلى أن وصلنا للمرحلة الجامعية، هناك تعرفت على نتالي وهناك وقعت في حبها، كنت مجنونا بها، لكنني لم أكن أعلم أن سيلا كانت تحبني من البداية، تحبني منذ الطفولة، وأنا كالأحمق كنت أخبرها عن مشاعري تجاه نتالي، لكنها لم تكن تبدي أي رد فعل، بل بالعكس استطاعت أن تكسب صداقة نتالي أيضا، لدرجة أنهما كانتا يملكان نفس القلادة لشدة صداقتهما، ذات يوم تفاجأت أن نتالي لازالت تحتفظ بها، عندما مات والداي في حادث سير، قررت الانتقال لمدينة الشمال واتمام دراستي هناك، لكنني وعدت نتالي أنني سأعود لكي أتزوج بها، وطلبت منها أن تنتظرني إلى أن أعود لها.

لكنني تفاجأت بسيلا أنها لحقت بي لهذه المدينة، وبعد مدة قررت أن تعترف بحبها الدفين تجاهي، رفضتها وأخبرتها أنني وعدت نتالي بأنني سأعود لها، وأنني لن أخلف الوعد، لقد كانت صديقتي المفضلة وكانت تبكي كثيرا لدرجة الانهيار، بعد اصرارها على حبي، وأنا في ذلك الحين كنت وحيدا دون أهل، كانت هي الشخص الوحيد الذي اعرفه في هذه المدينة، لذا قررت أن

أعطيها فرصة ، لكنني لم أستطع أن أنسى حبي الاول، كانت تعرف جيدا أنني لم أنساها انفصلنا وبعدها قررت العودة لنتالي تزوجتها وعاهدتها أنني سأحبها لاخرعمري.

مرت فترة من زواجنا لم نكن أنا وزوجتي على وفاق، فاستغلت سيلا هذا وعادت إلي، كنت أعاملها فقط كصديقة الطفولة في البداية أحكي لها عن مشاكلي وهي تواسيني، لكن عدنا لنقطة البداية فأصبحت أكثر من مجرد صديقة وخنت زوجتي معها.

بعد مدة أخبرتني نتالي أنها حامل وهنا تحسنت علاقتي معها ووعدت نفسي أنني لن اخونها وقطعت علاقتي نهائيا بسيلا، ولكن قبل شهر من ولادة نتالي، فوجئت بزيارة سيلا، تخبرني أنها قد أنجبت طفلا، وأنه مني أنا، أخبرتها أن نتالي حامل واقترب موعد ولادتها وعليها الابتعاد عني، لم تكثرت لأمري وهددتني أنها ستخبر نتالي بكل شيء جرى بيننا، لقد أجبرتني على أخذك مهنا وأن أسميك ماثيو، وأحضر لها طفل نتالي عندما يولد، فكرت في الموضوع مليا، لم أجد أمامي طريقة لأحل بها المشكل، إذا عرفت نتالي بالامر ستذهب من غير عودة ،بعد مرور شهر، وضعت نتالي مولودا ذكرا، فحملته لأعطيه لسيلا، وأخبرتها أن تسميه إيفان.

لابد أنك الآن تسأل نفسك هل فعلا هو أخي؟ نعم إنه أخوك، وانت ابني ، وأنا كذلك لا أعلم لماذا بعد هذه السنوات قررت سيلا الانتقام منا؟ رغم أنها انتقمت عندما حرمتني من ابني إيفان.

أتمنى من كل قلبي أن تسامحاني رغم أنني لا أستحق ذلك، أبعدتك أنت عن أمك، وإيفان أبعدته عن أمه وأبيه، هذا ما كانت تريد، لكن أظن أن ما فعلته وأن العذاب الذي عشت فيه لم يكفيها، ويطفأ نار الانتقام، لذا أطفئها أنت يا بني، عش حياتك وحاول أن تنسى، لا تحرق نفسك عبثا تبحث في أشياء من الاحسن أن تجهلها، حافظ على نفسك وعلى أخيك، وكونوا سندا لبعضكم البعض.

آيزاك الذي يحبك..." انتهى

هذه الرسالة كانت كفيلة بأن تطفئني بكل ما بالكلمة من معنى، لكنها أشعلت لهيب الغضب بداخلي، لا أستطيع أن أعبر عن حالتي أنداك، لكنني أغلقت باب غرفتي بإحكام، ثم أصبت بهيستيريا الصراخ، وأصبحت الغرفة في فوضى عارمة كأن إعصارا مر من هناك، ثم هرع إلي إيفان مسرعا، يتعثر في الدرج كالأحمق.

-" ما بك ماثيو؟ افتح هذا الباب أرجوك..."

كنت أبكي وأصرخ قائلا:" لقد كنت تعرف أنك أخي، أليس كذلك...؟ لقد كنت تعرف لذا كنت تلاحقني أينما ذهبت؟ لقد أخبرتك تلك الحقيرة أنك أخي، وأنا كالغبي صدقت أنك فعلا صديق يمكنني أن أثق بك"

-" أنا أخوك...، لماذا تقول هذا الكلام؟ افتح لي الباب أرجوك"

خارت قواي من شدة غصبي فسندت ظهري على باب الغرفة، ثم قلت له بصوت باكي:" لماذا فعلت هذا بي؟ لقد كنت أكثر شخص أثق به، هل فعلا كنت أستحق منك كل هذا؟ لماذا أردت الانتقام مني؟ ماذا فعلت لك؟"

-" ماثيو أنا لا أفهم ماذا تقول...، لماذا تلومني هكذا فجأة؟"

-" لقد أخبرني فيليب بكل شيء، لقد حذرني منك كثيرا لكنني لم أصدقه، وكنت انهره بشدة، هذا لأنه يتحدث عنك بسوء، حاول العديد من المرات اقناعي أنك خائن لكن لم أصدقه"

-"أفضل الموت على أن أخونك يا أخي"

-" لا أسمعك تناديني بأخي، أنت لست أخي...، أنت لست أخي"

-" افتح الباب وسنتحدث بهدوء، هكذا أنا لن افهم شيء، ما سبب غضبك؟"

فتحت الباب وأعطيته الرسالة:" خذ! اقرأها لتفهم ما أقول"

كان كلما تعمق في محتواها، كانت ملامح وجهه تختفي من شدة ذهوله، وعندما انتهى منها قام برميها على وجهي، ثم غادر المنزل، تفاجأت من تصرفه، فتبعته بسرعة، ووجدته جالسا على الرصيف ممسكا برأسه، وعندما وقفت أمامه قال لي:" لقد تحملتك كثيرا يا ماثيو كثيرا، لكن هذه المرة لن أتحمل، سأذهب وأتركك لوحدك، في الأخير هي أمك الغالية وليست أمي، لقد تحملت لومك الذي كان دائما يقع على عاتقي كالجبل، والآن عندما تعرف الحقيقة تلومني أيضا، لا يا سيد ماثيو، عليك أن تعرف حدودك الآن، أنا الضحية هنا، أنا المغفل الوحيد، وهذا يؤلمني حقا، يؤلمني يا أخي"

رأيت الحزن في عينه، رأيت الظلم الذي يشعر به، فعانقته بشدة وطلبت منه أن يسامحني، لكن إيفان هذه المرة لم يفعل، وقال لي:" لقد ضقت ضرعا من هذه الحياة، عندما كانت امي تطهو لك أشهى وألذ الطعام، كنت انتظر الخادمة لتطهو لي، عندما كان ابي يسرد عليك القصص المشوقة، كان ذلك الرجل، يأخذني من يدي ويغلق باب الغرفة علي، هذا لأنه كان يضرب

أمك بشدة، عندما كنت تنعم بجو حميمي وجميل، كنت أنا لا أسمع سوى الصراخ ثم الصراخ، والآن دعني أذهب، فأنا لست بالنسبة لك سوى خائن، لن أسامحكم، لن أسامحكم"، ثم ذهب...

الفصل الثالث عشر: عندما نام أخي

وأنا أقلب صفحات الماضي، أجد أنني أشتاق إلى الكثير من ذكرياتي، التي كان بطلها شخصا واحدا "إيفان"، يغلبني الحنين ويزيدني الشوق حرقة على فراق ذاك الأخ الصديق، في ماذا سيفيدني الغضب الان؟ بعد أن بعثرت هذه الصداقة ومزقتها، أين أنت يا أخي...؟

لقد تركني إيفان بعد أن علم بالحقيقة، وأخبرني بأنه سيعود للغرب، وأنني لن أرى وجهه مجددا، أعلم أنني لم أكن صادقا بقدر صدقه معي لكنني لم أكن لأستغني عنه أبدا.

وأنا شارد في حيرة كبيرة، سمعت طرقات الباب، ثم هرعت بسرعة، لعله إيفان جاء ليصالحني كعادته، لكنها كانت بياتريس، وقفت أنظر إليها في ذهول محبطا لأنني توقعتها طرقة إيفان.

-" مرحبا بياتريس، تفضلي"

-" شكرا لك" ثم جلست على الأريكة

-" سأحضر لك فنجان قهوة"

-" لم آتي لأشرب القهوة، إن إيفان عندي "

-" حقا...، هل تراجع عن قرار الذهاب إلى الغرب؟ كيف استطعت إقناعه بذلك؟"

-" لم أعرف سبب غضب إيفان هكذا، لكنه مصر على الذهاب غذا، لم أستطع إقناعه"

-"لا يجب عليه الذهاب..."

-"كيف له أن يتركنا هنا؟ إذا عاد إلى الغرب سأعود أنا أيضا"

-" إنه أخي، وأنا لن أستغني عنه، ، لقد كنت هائجا جدا، وجرحته كثيرا بكلامي"

-" كعادتك...، عليك أن تعتذر منه، إنه في حالة يرثى لها"

-" أعتذر...، إذا كان أعتذاري يجدي، سأعتذر منه ألف مرة، لكنني لا أظن أن اعتذاري سيطفئ نار الغضب التي يشعر بها"

-" لكن هذا لا ينفي أن عليك الاعتذار"

ذهبنا لمنزلها، فوجدته جالسا كأنه كان شاردا فيما حصل...

حاولت أن اقترب منه، وقلت له:" أخي إيفان..."

قاطعني قائلا بغضب:" ماذا يفعل هذا هنا؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟"

قالت له بياتريس:" لا أعلم ما شجر بينكما، لكن أعطه فرصة أخيرة"

فقلت لها:" بياتريس اتركينا لوحدنا"

لكنه صرخ في وجهي:" لا...! أنا الذي سأترك هذا المكان"

مسكته من ذراعه بقوة، وأمرت بياتريس بالانصراف للمرة الثانية، وقلت له بحزم:" ستبقى هنا، وسنتحدث، لست وحدك الذي صُعق عندما قرأ الرسالة"

-" لم أعد أطيق النظر إلى وجهك...، لأنك تذكرني بها"

لم أشعر حتى صفعته بقوة، ثم قلت له:" تلك المجرمة ليست بأمي، ولن تكون أمي أبدا"

قال وهو يضحك بشكل هستيري:" لكنك حقا تشبهها كثيرا...، بسببك ماتت أمي، وبسببك ماتت صوفيا، والان اعتبرني مت أنا ايضا"

ابتسمت في وجهه ابتسامة كلها اسى وحزن واحباط وقلت له:" أحقا تقول لي هذا؟ مات الجميع بسببي...؟ كنت أحسب أنك الوحيد الذي تعرف ما الذي قاصيته جراء ما حصل، لكنك في

الحقيقة لا تعلم عني أي شيء...، أنا لم أكن افكر في أي شيء سوى أن أنتقم لأهلي، انتقم لهم حتى من نفسي..."

-" أجئت هنا لكي تلومني مرة أخرى...؟"

-" لا جئت لأعتذر منك، لقد كنت فاقدا لأعصابي، ما كُتب في الرسالة لم يكن بالشيء الهين..."

-" لكنك لم تعر مشاعري أي اهتمام، ألم تفكر فيما كان سيحصل إن علمت أنني إيفان آزلبير؟ فقط كنت غاضبا وفرغت عضبك علي، لم تأبه بماذا سيحل بي أنا إن علمت..."

اقتحمت بياتريس حديثنا قائلة:" هل فعلا ما أسمعه...؟ إيفان آزلبير؟ هل ما فهمته صحيح...؟ انتما..."

قلت لها:" نعم نحن إخوة..."

." إن هذه الدنيا غريبة...، كيف حصل هذا؟"

-" إن كنت مكاني يا بياتريس وعلمت بالخبر الذي سيقلب حياتك رأسا على عقب، ألن تفقدي أعصابك؟"

-"نعم سأفقد أعصابي، لكنني لن أنفعل على إيفان لأنه ليس بالهين أن تدرك أنك كنت تعيش في كذبة وتخلت عنك أمك

فقط لأنها تعلم أنك لست ابنها...، كنت لأحتضنه وأجهزه للخبر، ما كنت لأجرؤ على إغضابه"

قال إيفان:"أرأيت كيف يتعامل الانسان الطبيعي في هذه الحالات...؟"

-" يبدو أنني أخطأت عندما أتيت إلى هنا... "

ثم رحلت عنهما يائسا بائسا، لا أعرف حتى من أكون؟ كنت أشعر أنني نكرة وسط عالم واسع وكبير، نعم، كان إيفان على حق، فبئس الأخ أنا وبئس الابن، وبئس الصديق، لست أصلح إلا لأذية الآخرين، كما كانت تفعل سيلا، لابد أنني ورثت عنها حقدها وكرهها.

في ذلك المساء لم أعد إلى البيت كعادتي، ذهبت إلى ذلك المستودع القديم الذي ماتت فيه أختي، كنت أريد أن أتذكر أن هنا نامت أختي على كتفي، هنا ضممت أختي إلى صدري وهي جثة هامدة، وهنا قصصت عليها قصة لكي ترقد بسلام، وهنا وعدتها أنني سأعاقب نفسي بعدما أنتقم لأمي.

وأنا أبكي بحرقة قلت مخاطبا صوفيا:" لقد جارت عليّ الدنيا يا صوفي، أم أنها تعاقبني على أفعالي؟ لا أدري ربما لم تسامحيني يا صوفي، وأنت كذلك لن تسامحيني، أ تعرفين...؟ إذا ذهب عني

أخي سأبقى وحيدا، ولن أستطيع تحمل ذلك، لماذا أنا هكذا يا صوفي ؟ علميني كيف أكون انسانا طبيعيا، علميني كيف أكون شخصا طيبا مثلك "

-" لأنك تتألم، لأنك لست على طبيعتك يا ماثيو، لأنك لست ماثيو..."

قلت وأنا خائف:" من هناك؟ اظهر لي نفسك"

قال الصوت:" لا تخف...! هذا أنا إيفان، كنت أعرف أنك ستأتي إلى هنا"

-" وكيف عرفت؟"

-" هنا ماتت أختي أليس كذلك؟ لقد تبعتك...هذا ما في الأمر، وسمعت ما كنت تقول"

انتبهت لدموعه فقلت له:" هل كنت تبكي؟"

-" قليلا...، لأنك كنت تتكلم بحرقة، وهذا ما يشعل في داخلي نارا لا أعرف كيف أطفئها، والآن يمكنك أن تقول أنني أشعر حقا بما تشعر به"

هرولت إليه لأعانقه وتأسفت على ما بدر مني كثيرا،لأنني حقا لست على سيجتي، لأن من ماتوا كانوا أعز الناس إلى قلبي، أمي وأختي...

قال لي:" لا عليك يا أخي، وأنا آسف لأنني غضبت منك كثيرا"

-" لا تأسف فأنا المخطئ..." سكت قليلا ثم قلت:" أتعلم يا إيفان؟ هنا وضعت صوفي رأسها على كتفي ونامت، لقد كانت جميلة جدا، عندما نذهب للمنزل سأريك صورها، إنها تشبهك كثيرا، كنت دائما تذكرني بها"

-" وددت كثيرا التعرف عليها، لابد أنها كانت ثرثارة مثلي"

وأنا أضحك:" كثيرا...، تشبهك في الثرثرة"

وأنا أحدثه عن أختي والذكريات التي جمعتني بها نام الصبي على كتفي، تأملته فأبصرت أختي في تفاصيله، عندما نام أخي أدركت أن كتفي هو مكانهم الآمن، عندما نام أخي أحسست بدوري كأخ جيد، عندما نام أخي عدت لليوم الذي أحبب فيه صوفيا، وحملتها بين يدي، عندما نام أخي عادت البسمة إلى قلبي الحزين، وبعدها استسلمت للنوم وسندت رأسي على رأس أخي، إلى أن تسللت أشعة الشمس من النافذة، تسلط الضوء على مشهد غاية في الجمال...

****

بعد مرور اسبوع، استيقظت من نومي صباحا، وبقيت مستلقيا على سريري، إلى أن سمعت صوتا يقول:" مرحبا ماثيو...، غبت عنك كثيرا"، لقد كان فيليب ذلك المسخ.

-" لازلت تلاحقني...، ماذا في جعبتك اليوم؟"
-" لا شيء...، جئت أهنئك بأخيك الجديد"

-" لقد كان أخا لي على أي حال"

-" لكنك الخاسر في هذه اللعبة"

-" لماذا؟ أنت تسببت في اكبر خسارة لي، ألا يكفيك هذا؟"

-" خاسر...، لأنك حاربت أمك من أجل أخرى ليست لك، وقتلت رجلا من أجل أخت ليست لك أيضا، وتسعى جاهدا لتنتقم من امك...، لم أكن أتوقع أن سبب هذه المصيبة عدم تفكير أبيك في العواقب، عواقب خيانته لزوجته..."

-" أبي نال عقابه حقا، ذهبت المرأة التي يحبها، وذهبت ابنته الصغيرة، وهو الآن في السجن، وكان يحمل هذا السر لسنين، أليس هذا كافيا؟"

-" لا...، لا يكفي لأن كل الذي حصل بسببه"

-" أبي في حال مزرية الان وأنا أخاف عليه، رغم أنني ألومه بشدة لكنني أحتاجه في حياتي"

-" لكن يبدو لي أن إيفان حاقد بشدة لن يسامحه بسهولة، ستكون هذه ضربة قاسية بالنسبة للسيد آيزاك، أنقذ أباك قبل أن تفقده، إن كنت فعلا تريد أباك"

-" لماذا تكره إيفان لهذه الدرجة؟؟"

-" لأنه سبب حزنك يا ماثيو، بطريقة ما يأخذ كل شيء منك..."

فكرت في أبي كثيرا، لم أستطع أن أنكر أنه كان أبا جيدا، ولم أستطع أن أحقد عليه، لكن كيف سيكون رد فعل إيفان، الابن المتخلى عنه...

استيقظ إيفان، ودخل إلى غرفتي، وجلس على سريري لكنه لم يكلمني...

قلت له:" ما بك يا إيفان؟"

-" ماثيو...، أريد أن أرى أبي"، انهمرت دموعه، ثم قال:" لقد اشتقت إليه، وأنا أريده أن يسرد علي قصصه الشيقة، أريد أن أرتمي في حضنه وأناديه أبي، أليس من حقي يا ماثيو، ألست

أستحق منه عناقا دافئا، اريد أن ألومه، أريد أن ألقي غضبي ليهدأ قلبي قليلا"

-" أخي إيفان، لست بحاجة لكل هذا البكاء، سنزور أبي في الموعد القادم، ولكن أريد أن أسألك، هل سامحته رغم أنه تخلى عنك؟"

-" لطالما تمنيت أبا مثل السيد آيزاك، ربما القدر يستجيب وأخيرا"

-" سيفرح عندما يراك..."

-" ماثيو، نعم الأخ أنت"، قالها وهو يبتسم في وجهي.

أحسست كأن السعادة نبعت من أعماق فؤادي، وتدفقت في كل أنحاء جسمي، أهكذا تكون الأخوة؟ ما هذا الاحساس الغريب؟ فقلبي يخفق كأنها أول مرة...

وصل موعد الزيارة، وكنت أنا وهو ننتظر ظهور أبي من باب السجناء بفارغ الصبر، كنت أريد أن أرى ردة فعل ابي عندما يرى إيفان ويعلم بأنه يعرف الحقيقة، لكن ثم استدعاؤنا من طرف المسؤول هناك، لم نفهم لماذا؟ لكن كان يبدو أن أمرا غريبا قد حدث، ذهبنا إليه، لنجده ينظر عبر نافذة مكتبه، ثم انتبه لوجودنا.

-" مرحبا، تفضلا بالجلوس"

أجبته وأنا في غاية الحيرة:" شكرا سيدي، لماذا استدعيتنا أنا وأخي؟"

-" ماذا سأقول لكما؟ المهم...، السيد إيزاك... حاول أن ينتحر، ولقد استطعنا إنقاذه في الوقت المناسب لحسن الحظ، إنه الآن في المستشفى"

ثم قال إيفان ودموعه على أطراف عيونه:" ماذا؟؟ هل فعلا هذا ما حصل؟ في أي مستشفى هو الآن؟"

-" هل هو الآن بخير وبصحة جيدة؟ يا سيدي هل يمكننا زيارته؟"

-" اهدآ، هو الآن بخير وحالته مستقرة، سأسمح لكما بزيارته يمكنني أن آخذكما إلى هناك، لكن قبل هذا سأعطيكما هذه الرسالة، لقد تركها السيد آيزاك قبل أن يقدم على فعله"

انقضضت على الورقة لكيلا يأخذها إيفان:" سآخذها...، أنت في حال لا يؤهلك لقراءتها أولا، لذا سنقرها معا لا تقلق، حسنا لنذهب يا سيدي..."

في السيارة قال لي أخي:" يبدو أنني لا أستحق أن يكون لي أب مثل السيد آيزاك، أم أنه لا يريدني فعلا؟"

-" لا تقل مثل هذا الكلام، أبي يشعر بالذنب الشديد تجاهك، لابد أنه لام نفسه كثيرا"
-" لقد وصلنا..."

-" لدي ذكريات بائسة مع هذا المستشفى، أتعلم يا إيفان هنا التقيت مع السيد جوناثان"

-" أتدري أنني اشتقت لذلك المحقق؟"

-" وأنا كذلك، هيا لنرى أبانا"

-" تفضلا هذه الغرفة التي يرقد فيها، لديكما نصف ساعة، وسآتي لأخذكما"

-" شكرا جزيلا، ماثيو لندخل"

وجدنا ابي مستلق على السرير وهو في حال يرثى لها والكدمات تحيط بعنقه ورأسه مشدود بالضمادات.

قلت له:" مرحبا أبي، لقد جئنا لزيارتك..."

-" ولداي الحبيبان، لم أكن أظن أنكما ستعودان" ثم فتح ذراعيه ليضمنا، لكنني لاحظت ترددا على وجه إيفان، كأنه لازال يشعر بنفسه غريبا ولا ينتمي إلينا.

-" هيا يا إيفان لقد قال ولداي، لنتسابق لحضنه كما يفعل الاخوة"

لقد كان عناقا دافئا جدا، مر علي وقت طويل لم أنعم بحضن مثله، لقد افتقدت إحساسي بالاستقرار، والآن عادت إلي جذوري وأصبحت أنتمي لأحدهم.

قلت لأبي:" لا تتركنا يا أبي، فنحن نحتاجك كثيرا، لماذا فعلت هذا في نفسك؟"

إيفان:" لابد أنك تألمت كثيرا؟"

-" لكنني لم أتألم مثلكما، لقد تسببت لكما في المشاكل، أنا السبب في كل ما حصل"

أنا:" لكنك مهم بالنسبة لنا، ونحن كنا قد اشتقنا لك كثيرا، وأنت الآن تريد الرحيل عنا"

إيفان:" هل تستطيع أن تعانقني كثيرا؟"

-" إيفان يا بني، نعم أستطيع يا بني، أستطيع..."

ثم بدأ إيفان بالبكاء على صدر أبيه، فحلمه الآن يتحقق، وكانت دموع أبي تنسكب على كتفي الفتى، لم أحرك ساكنا، فقط كنت أراقبهما، لم أكن أود أن أقاطعهما.

ثم قال إيفان:" أبي هل يمكنك أن تقص علينا قصة، إلى أن ينتهي وقت الزيارة"

أجبته:" لقد كبرت على هذه القصص"

-" دعه يا ماثيو، فكأنني لم أسمع هذه الكلمة من قبل، هل سامحتني يا بني؟"

قلت بسخرية:" ألم تسمعها من قبل...؟ سأغار هذه المرة أيضا"

-" تعال يا ابني الغيور، تعال إليّ لأضمك" ضمني إليه وقال لإيفان:" احذر منه فإنه غيور جدا، أتذكر أختك صوفي؟"

-" نعم يا أبي...، ليتها كانت بيننا الآن"

ثم قال إيفان:" أنا الذي أغار الآن...، هيا احكي لنا قصة"

-" سأحي لكما، دعوني أفكر في قصة"

ثم بدأ أبي يقص علينا ونحن نستمع إليه، لكن الوقت مر بسرعة كبيرة، وأمرنا الشرطي بالخروج، وأقلتنا سيارة الرجل إلى المنزل مباشرة.

إيفان:" لقد أزالت عني هذه الزيارة جبال الهم تلك، إنه رجل جيد، سأشتاق إليه يا ماثيو كثيرا"

-" لا تقلق سنزوره المرة المقبلة، هيا لنقرأ هذه الرسالة"

-" نعم لنقرأ الرسالة معا" قالها وهو يضحك

كانت الرسالة تقول:" ابني ماثيو، أخبر أخاك أنني كنت أحبه كثيرا، وكنت أراه دائما ولو من بعيد، حاولت ذات مرة الاقتراب منه لكنني خفت من نظرته التي تقول لي أنت شخص غريب، وعندما علمت أنكما أصبحتما صديقين فرحت كثيرا، أبلغه بهذا يا ماثيو، لست أقدر على مواجهته، فأنا في الأخير حرمته من أمه وأبيه.

سأخبرك عن عنوان الكوخ الذي كنت محتجزا فيه، إنه على بعد عشرين كيلومترا من مدينة الشمال، توجد هناك غابة كثيفة الأشجار، ستتوغل داخلها إلى أن تصل إلى طريق فرعية بجانب الوادي، ستسلك تلك الطريق إلى أن تصل للكوخ"

أصابتني الحيرة من هذا الوصف الغريب، فقلت لإيفان:" ما هذا؟ غابة، وادي..."

-" أنا لم أفهم أي شيء، لابد أن أبي لا يجيد الوصف"

-" ألا تتذكر ملكيتكم لأي كوخ؟ قل لي يا إيفان أين يوجد منزلكم الذي وجد فيه السيد لينكل مقتولا؟"

-" لا يا ماثيو، ليس الكوخ المقصود، إنه بيت كبير جدا، لا أظن ذلك، وكذلك ليس بعيدا جدا عن المدينة، لقد قال أبي 20 كيلومترا ولا يوجد داخل غابة"

-" علينا أن نذهب لهذا البيت الكبير، سنذهب غدا"

-" غدا...؟"

-" نعم غدا...، لن أنتظر أكثر، عليّ أن أجدها مهما كلفني الثمن"

-" إصرارك يعجبني يا ماثيو، سنذهب غدا"

ثم بدأنا بالحديث عن زيارتنا المتتعة لأبي، لقد كان إيفان أسعد مني لأنه استطاع تقبل الامر، وارتاح لفكرة أن آيزاك يكون أباه، لكنني تفاجئت منه عندما قال لي:" سيصبح اسمي إيفان آزلبير...، لقد أصبح اسمي جميلا"

-" لا تنسى أن أبي من اختار لك اسم إيفان، وهذا شيء جميل..."

لكن ذلك المسخ لا يدعني التقط نفسا سعيدا دون أن يقول شيئا...

-" حقا اكرهه...، حتى لقب آزلبير يريد الاستلاء عليه"

لكنني لم أجبه لأنني كنت مشغولا بالحديث مع أخي إيفان، أخي الذي كان رفيقا في الضراء قبل السراء، شاركني نفس المصير، نفس المعاناة، لكنه على عكسي تماما لازال متفائلا، يحاول ما أمكن الاستمتاع بالحياة، بعد أن وجد حب حياته التي أصبحت تحبه هي الاخرى، وتلحق به أينما ذهب، يريد أن يدرك نصيبه من الحياة، من الفرحة ومن الامل، على عكسي أنا، لا أرى سوى ما خلفته لي الايام من ألم وقسوة، لا أرى سوى اطلال الماضي الذي لن يعود أبدا.

في صباح اليوم التالي ذهبت أنا وإيفان للجامعة، وهناك التقينا بياتريس بعد نهاية المحاضرة...

-" إيفان...، إيفان...، أين سرحت؟"

-" آآه، ماثيو...، ماذا تريد مني؟"

-" علينا الذهاب، أنسيت؟"

-" لم أنسى..."

قالت بياتريس:" أين تنويان الذهاب؟"

-" لا فقط سنذهب لمنزلنا القديم، الذي وجد فيه أبي مقتولا"

-" هل أذهب معكما؟"

-" لماذا تحشرين نفسك في المشاكل؟"

أنا:" لا مشكلة لدي إن أرادت الذهاب "

وأخيرا وصلنا هناك، لقد كان منزلا كبيرا ذو حديقة جرداء، وباب حديدي صدئ، كان منظرا مخيفا، كأنه مشهد من أفلام الرعب.

قال إيفان بحسرة:" لقد كان جميلا جدا، انظر كيف أصبح الآن؟"

-" اعذرني يا إيفان، لماذا لم يحجز البنك على هذا المنزل؟"

-"لا أعلم حقا، في حقيبتي يوجد الكثير من المفاتيح، ومنها مفتاح هذا المنزل، لقد كنت أحتفظ بأي شيء يخص عائلتي...، لم تعد عائلتي"

-"أهنا كذلك توجد أبواب سرية؟"

-" في غرفتي هنا لا يوجد، لكن لا أعلم عن أمر الغرف الاخرى"

-" لذا فلنبحث جيدا..."

إيفان:" هيا هيا لندخل..."، " لقد أصبح المنزل مهترئا جدا هجرناه لمدة طويلة"

-" كمنزلنا...، لقد أخذ مني وقتا طويلا لترتيبه وتنظيفه"

-" ماثيو ماذا سنفعل الآن؟ هل نبدأ البحث كما فعلنا المرة السابقة؟"

-" لن أذهب للقبو هذه المرة، أنت ستذهب، وانا أبقى في هذا الطابق، بياتريس ستصعد فوق"

-" وتوجد العلية أيضا، لكن لا أعلم إن كانت فيها إضاءة أم لا"

قلت له مستهزءا:" ابحث في محفظتك، سيكون هناك مصباح"

-" لا يوجد، حسنا لنبدأ، سأتدبر أمر العلية أيضا، لابد أن في المنزل شمعا"

بدأنا بالبحث، عسانا نجد شيئا، كنت أتجول في دهشة، أتأمل في تفاصيل الجذران التي لم يمحوها الزمان، أعلم جيدا بأن هذا المنزل مليء بالألغاز، لذا كنت أحرك أي شيء أجده أمامي، اتلمس الحيطان، وأنظر خلف الصور المعلقة، لكن بدون جدوى، ناديتهم لنجتمع فنرى ماذا وجد البعض منا...

-" ماثيو، هل وجدت شيئا؟"

-" لا للأسف لم أجد شيء، وأنت؟"

-" لا لم أجد شيئا، وانت بياتريس؟"

-" لم أجد شيئا يفيد في هذه القضية"

-" ماذا عسانا أن نفعل الآن؟

-" لا تقلق ماثيو، لازالت العلية، لم نبحث هناك؟"

-" هيا لنذهب، لقد فقدت حماسي"

-بياتريس:" لقد وجدت مصباحا في الغرفة هناك بالأعلى...، سأذهب لأجلبه"

أنا:" صدقني يا أخي لقد أصبحت حائرا، كيف لها أن تختفي هكذا كأنها لم تكن، مصيري أصبح مربوطا بها، حتى نهايتي...، لقد تعبت من البحث"

إيفان:" لقد تأخرت بياتريس"، رفع صوته قائلا:" هيا بياتريس لقد تأخرت"

لكنها قالت:" لابد أن تروا هذا..."

هرعنا إليها بسرعة، فوجدناها في ذهول شديد، وكان ما رأيناه حقا لا يصدق، لقد كان بابا سريا، باب دائري مزخفر، وبعد أن عم الصمت المكان، نطقت بياتريس.

-" ماذا سنفعل؟"

أجابها إيفان باستغراب شديد:" ما هذا...؟ إنه باب"

-" نعم إنه باب...، لكن لماذا هو هكذا...؟ إلى اين يؤدي؟"

-" علينا أن نجد طريقة لفتحه..."

إيفان:" كيف ذلك...؟"

بياتريس:" لقد بدأت أصدق أنها امرأة مجنونة "

أنا:" كما قال أبي، لا يجب علينا أن نستهين بها"

إيفان:" نعم علينا توخي الحذر"

وعندما كنت مركزا في تفاصيل هذا الباب، استوقفني صوت إيفان من ورائي:" إنه الكوخ...!"

-" ماذا هناك يا إيفان؟ لقد أفزعتني"

-" إنه يؤدي للكوخ الذي في الغابة"

بياتريس:" كيف عرفت هذا؟"

-" شكل الباب دائري، ونحن في الجهة الغربية من مدينة الشمال، يبعد هذا المنزل عن مركز المدينة ب 7 كيلومترات أو حولها، لابد أنه طريق لنفق طويل جدا، على الأقل 10 كيلومترات"

-" يمكن ألا يكون كذلك، يمكن أن يؤدي بنا لغرفة أو شيء من هذا القبيل"

أنا:" بياتريس كيف وجدت هذا الباب؟"

-" فقط حركت المصباح من مكانه، ثم ظهر هذا الباب من وراء خزانة الكتب..."

-" اعطني إياه..."

حاولت التفكير في طريقة لفتح الباب، لابد أن تكون هناك طريقة، لكن بعد أن ضغطت على زر التشغيل لإضاءة المصباح فتح الباب، وحقا كان عبارة عن نفق مظلم...

أنا:" ما هذا...؟"

بياتريس:" سأعترف لكما بدهائها"

أنا:" والآن ماذا سنفعل ...؟"

إيفان:" سندخل النفق، لكن علينا أن ننتبه للتهوية، ابقو هنا، سأتفقد النفق وأعود"

دخل الفضولي وسط الظلام، دون أن يفكر، كيف لا؟ وهو خبير في اكتشاف الكهوف والمغارات، لقد أفادته العيشة في الغرب

كثيرا...، وعلى غفلة منا، يخرج رأسه من فوهة النفق ليقول:" لك أن تعترفي بدهائها توجد تهوية جيدة، يمكنكما التقدم"

-" هيا بنا بياتريس، سأصاب بالجنون حقا..."

إيفان:" هيا يا ماثيو، لا تنزعج هكذا"

-" لا لست منزعجا، هيا بنا"

فتوجهنا نحن الثلاثة نحو مصير مجهول ...

****

دخلنا النفق، كان إيفان يسبقنا مع المصباح، وكما قال كانت تهويته جيدة، وذلك عبر ثقوب في السقف، لقد كان نفقا مخيفا، والطريق إلى نهايته طويل جدا، عندما وصلنا لنهاية النفق اصطدمنا بحائط أمامنا...

-" أهذه النهاية؟ قطعنا كل هذه المسافة لنجد هذا الحائط، سأفقد صوابي"، لقد كان إيفان محبطا كثيرا

قلت له:" ماذا عسانا أن نفعل الآن"

بياتريس:" دعونا نبحث عن زر، أو شيء يسمح بفتح هذا الباب"

إيفان:"سأعود علنا فوتنا شيئا..."

-" لا تتأخر إيفان فأنا أخاف الظلام"

-" لا تخافي لن أبتعد..."

انتظرناه طويلا وأصبنا بالحيرة، أين عساه ذهب؟ وكم من المسافة قطع؟ لأن وميض المصباح اختفى

بياتريس:" لقد قلقلت على ذلك الشقي، أين عساه اختفى كل هذا الوقت؟"

-" ليتنا ذهبنا معا، ولم نتركه وحيدا"

ثم سمعناه صوته ينادينا، لكن كان مصدر الصوت بعيدا قليلا بعض الشيء، كان إيفان يقول:" تقدما إليّ، لقد وجدت المخرج"

هرولنا إليه في ذاك الظلام الدامس إلى أن وصلنا إلى أن وصلنا للضوء، لكننا وجدنا أنفسنا أمام فتحة أخرى، تحمل نفس النقوش التي كانت على الباب الاول.

-" إيفان، أين أنت؟"

-" أنا هنا، لقد وجدت هذا الباب موصدا أيضا"

-" شباب في رأيي علينا أن نبحث جيدا في هذه النفق، لابد أننا سنجد فتحات أخرى"

-" لقد فكرت في ذلك أيضا، ووجدت فتحة ثالثة، إنها في الخلف قليلا، لذا تأخرت في البحث"

-" هل بحثت على طول النفق؟ لأن الطريق طويل جدا"

-" ماثيو أنا متأكد أنه لا توجد إلا ثلاث فتحات في آخر هذا النفق"

-" في رأيي أن نفترق مجددا"

-" لست مقتنعا بأن نفترق هذه المرة، لابد أنها تخطط لأمر ما"

-" كيف ستعرف أننا ثلاثة يا ماثيو، أنا أظن أن علينا أن نفترق"

بياتريس:" انتظرا، هناك كتابة ما على هذا الحائط، لكنها بلغة لا أستطيع فهمها"

-" إيفان لابد أن على كل فتحة كتابة كهذه، كما قالت بياتريس علينا أن نفترق"

-" تمهلا نحن نملك مصباحا واحدا، كيف سنجد طريقة لفتح الأبواب المؤصدة"

-" علينا أن نفهم هذه الكتابة، لم أفهم حرفا مما تقوله"

-" أمتأكدان أنها من صممت هذا النفق...؟"

-" أتظنينها غبية مثلنا، هيا لنبحث جيدا في هذه الجمل المشفرة، ماثيو امسك المصباح ووجهه نحو هذه الأسطر، لكي أستطيع كتابتها في مذكرتي"

-" اتعرف يا إيفان لماذا لا تصبح عالم آثار؟ ابتعد عن القانون وهذه الأشياء، لا تليق بك"

-" حقا إنها ماكرة، انظر إنها لغتنا لكنها مكتوبة بالمقلوب، من لديه مرآة؟"

ضحكت بياتريس ثم قالت:" ابحث في حقيبتك العجيبة"

-" ماذا ستفعل مرآة في حقيبتي؟ "

-" خد هذا المصباح وأعطني المذكرة، سأستطيع قراءتها بالمقلوب، لقد كنت ألعب هذه اللعبة مع أبي"

لقد كانت كتابة صعبة، بخط قديم، فبدأت بتهجئة الحروف، وجمعتها حرفا حرفا في المذكرة، وكانت الأسطر تقول:" مفتاح الباب هو النور الذي تحمله"

-" ماذا...؟ دعني أرى، ماذا سنفعل الان؟"

بياتريس:" لابد أنها تقصد المصباح "

عجبنا لأمر هذه الكلمات، ولأمر هذا المصباح، بقينا لوقت طويل ونحن نفكر في حل هذه الشيفرة، لكننا يأسنا منها، جربنا أن نسلط الضوء على الباب وعلى الجدران المحيطة به لكن دون جدوى، ماذا عساه يكون خلف أبواب هذا النفق، جلسنا نفكر طويلا في حل، لكن الحلول التي افترضناها كلها كانت خاطئة، ماذا عسانا أن نفعل؟ لم نعرف، ووقعنا في الحيرة والشك، وبدأنا نفكر أننا احتجزنا هنا، ولن نخرج من هنا للأبد...

-" لقد بدأت أشعر بتعب شديد، أتنفس بصعوبة بالغة"

-" لا يا أخي لا تقلقني عليك...،علينا أن نخرج من هنا بأي طريقة"

-" هل سنكسر الأبواب يا ترى...؟"

-"أنا خائفة..."

بعد وقت طويل من الصمت، قررت أن أسأل بياتريس:" هل كان في تلك الغرفة ما أثار ريبتك غير هذا المصباح..."

-" لا...، لكن الشيفرة تقول السر في المصباح"

-" إنه المصباح اللعين..."

-" ماثيو دعنا نفتحه، علنا نجد شيئا"

فككناه وفعلا وجدنا زرا صغيرا داخله، ثم بادرت بالضغط عليه، وفتح الباب الذي كان أمامنا، لكننا لم نفكر في أن نفترق، بل قررنا أن نسلك ذاك الطريق جميعا.

أدى بنا النفق المظلم إلى غابة كثيفة الاشجار، وهناك تيقنت أنها الغابة التي وصفها أبي في الرسالة
إيفان:" إنها غابة يا ماثيو... "

بياتريس:" لقد أمضينا وقتا طويلا داخل النفق،وحل الظلام، إيفان هل لديك ساعة لنعرف الوقت"

-" لدي ساعة وبوصلة أيضا"

-" أظن أن علينا أن ننتظر هنا ليحل الصباح، ثم نبحث عن الوادي لقد تعبت، هل جلبت الرسالة معك لكي نتبع النعت جيدا؟"

-" نعم يا ماثيو، إنها في الحقيبة كل شيء أضعه فيها"

انتظرنا هناك أمام فتحة النفق، إلى أن أسدلت الشمس أنوارها، وأصبحنا نرى وندرك أين تسير أقدامنا،

-" لقد أغلقت الفتحة، هيا استيقظا لقد أغلقت الفتحة" كانت صدمة إيفان بادية على وجهه.

-" ما بك يا أخي؟ ماذا حدث؟"

إيفان:" كيف أغلقت هذه الفتحة؟"

-" لا تقلق سنجد طريقا للخروج من هذه الغابة، كما فعل أبي"

-" أتمنى ذلك...، هيا لنكمل مهمتنا هذه"

-" علينا الان أن نبحث عن طريق فرعية، بجانب الوادي"

-" متى سنتخلص من هذه المحنة؟"

وبعد مدة من المسير المتواصل داخل الغابة،قالت بياتريس:" انصتا، أسمع خرير مياه قريب، لابد أننا قريبون من الوادي"

لقد كان الوادي قريبا جدا من الطريق الذي نسلكه، فتيقنا أننا على الطريق الفرعية التي نبحث عنها، لم يتبقى لنا سوى أن نجد الكوخ اللعين. سرنا طويلا إلى أن توقنا أمامه، وبدأت الأسئلة تنصب على رأسي بغزارة، إلى أن وقف لوميز مسندا جسمه على باب الكوخ.

-" أهنئك على هذا الإنجاز، اقتربت نهايتك أيضا، فلا تفرح كثيرا"

." سأفرح لأنني سأتخلص منك..."

قبل أن يتفوه أحدنا بكلمة كنت أخاطب أختي صوفيا في نفسي قائلا:" أعطيتك وعدا يا أختي وسأفي به، رغم أنني لم أشابك يدي بيدك، لكنني سأفعل ذلك لاحقا عندما نلتقي هناك، ليس صعبا عليّ أن أتخلص من نفسي يا أختي، أصعب ما في الامر أنني أريد أن أجد من أكون أريد أن أجد إجابات على أسئلتي الكثيرة...، أعلم أنك الان غاضبة مني لأنني تأخرت عليك، ولهذا لم تزوريني منذ سنوات، لكن كوني أكيدة أنني سآتي قريبا"

كان الشرود والحيرة باديين على محيا كل واحد منا، نتساءل عما يخفيه هذا الكوخ أيضا، كان الخوف يسيطر على أنفسنا التي أصبحت تؤمن حقا بدهاء وخبث هذه المرأة، أنتقدم، أم نعود؟

-" إيفان! بياتريس! هل أنتما مستعدان لما ينتظرنا في الداخل؟"

-" أنا مستعد، بل أنا متحمس بشدة"

-" أنا خائفة قليلا، لكنني مستعدة"

-" هيا لنحاول كسر هذا الباب"

حاولنا وبكل قوتنا كسره، لكنه كان صلبا جدا.

-" لا يمكن كسره، ماذا سنفعل الآن؟ إيفان هل لديك حل لهذا؟"

-" لأكون صريحا يا صاح، لا توجد لدي أدنى فكرة"

-" لنبحث في جوانب الكوخ، علنا نجد بابا خلفيا أو نافذة"

إيفان:" كنت أظنك فتاة غبية، لكنك أذهلتني الآن، ماثيو أنا ذاهب لأبحث عن شيء ما يفيدنا"

-" لا تهتمي لما يقول إنه يمزح فقط... لا يبدو لي أنه سيجد شيئا"

قالت لي:" لنأمل الخير، لابد أن نجد حلا لدخول هذا الكوخ أيضا"

-" شكرا لك بياتريس، لقد ضحيت بالقدوم معنا إلى هنا"

-" لا مشكلة، سأبقى معكما إلى أن تجدا ضالتكما"

عاد إيفان إلينا بعد مدة، ثم قال:" للأسف لم أجد شيئا يفيد، كيف سندخل الآن؟ لم نأتي إلى هنا مشيا عبر نفق لنصطدم بباب خشبي لعين، هل من فكرة أخرى؟"

-" هل لديك سكين في تلك الحقيبة؟"

-" ماذا سيفعل السكين في حقيبتي؟ لا ليس لدي، لا يبدو أنه سيفتح بالسكين"

-" وماذا سنفعل الآن؟ بدأت أفقد أعصابي حقا"

-" سأذهب لقضاء حجاتي، عندها يمكن أن أفكر في حل"

ذهب إلى شؤونه، إلى أن عاد يصرخ من خلف الأشجار

-" اتبعاني هيا، لقد وجدت الحل"

-" ماذا هناك يا إيفان؟"

-" لقد وجدت هذا، لا أعلم ما هو لكنه يفتح بسهولة، لقد وجدته مغطى بالأغصان"

-" إنه باب القبو على ما أظن، افتحه لنرى هل يمكننا الولوج إليه"

-" حسنا، أعطني ذاك المصباح ... انظر هناك سلم في الحائط، يعني أننا يمكننا النزول"

-" إنني خائفة، لكن علينا أن ننزل بسرعة، إن كنا سنجد شيئا حقا، لنغادر هذا المكان قبل أن يحل الظلام، لست مرتاحة أبدا"

-" هيا إذن، وأنت لا تخافي فأنا هنا معك"

قلت له:" انزل أنت أولا يا شجاع"

كانت الحيطة والحذر عنواننا، ونحن نكتشف قبو الكوخ، لقد كان موحشا جدا ويبعث الخوف، كان في العموم فارغا، لا يحتوي أشياءا كثيرة، فأصبح بيتا للعناكب والحشرات.

-" ها هو الدرج المؤدي إلى الداخل، لنصعد هيا بنا"

-" حسنا إيفان، ربما نجد بابا أقل صلابة" في تلك اللحظة كنت أتمنى أن أدخل هذا الكوخ، لأجيب عن السؤال الذي يحيرني – لماذا فعلت كل هذا؟ –"

صعدنا الدرج لنجد أنفسنا أمام باب آخر، دفعته قليلا ففتح، استغربنا قليلا، لكن قررنا أن نعبر إلى الداخل، لا زلنا حينها لم نتخلص من الظلام الذي كان يعم المكان، فلم تكن هناك نافذة تسمح بمرور الضوء...

-" اوجد قابسا كهربائيا، فهناك مصابيح"

نظر أيفان للأعلى وأجابني:" صحيح، لكن كونا حذرين، لأننا لا نعلم أي سر يخفيه هذا الكوخ أيضا"

بياتريس:" ليس علينا أن نفترق، فهذا الكوخ مخيف جدا"

فجأة أصبح المكان مضيئا، ثم التفت إلينا إيفان قائلا:" لقد وجدت القابس"

لكن كان الكوخ فارغا، لا يوجد فيه شيء، وكان صغيرا وضيقا، ووجدنا أمامنا غرفة وحيدة

-" لابد أنها الغرفة التي احتجز فيها أبي"

-" نعم يا ماثيو، لنحاول فتح هذا الباب"

بياتريس:" يبدو أنه مفتوح أصلا، سأنتظركما هنا، لأنني خائفة"

-" انتظر معها يا إيفان، سأرى إن كان مفتوحا، وانظر ما بداخله"

قال لي:" حسنا لكن توخى الحذر"

فتحت باب تلك الغرفة، نظرت خلفي إليهم، لأجدهم يتطاولان بعنقهما خوفا من أن يكون هناك فخ، تقدمت خطوة للأمام، ثم تقدمت خطوات أخرى إلى أن أصبح الباب خلفي.

إيفان:" ماثيو كن حذرا، أن لم تجد شيئا فلتخرج من هناك"

-" لا تخف يا أخي، هل يمكنك أن تجلب لي المصباح لأن هذه الغرفة مظلمة جدا، لا يصلها الضوء"

-" حسنا... "

وما إن تقدم إلي، واستدرت إليه لآخذ المصباح حتى أغلق عليّ الباب، وأصبحت أسير غرفة مظلمة، جربت أن أفتحه، كذلك إيفان من الخارج، لكنه أغلق بإحكام هذه المرة

-" ماثيو، هل أنت بخير؟ أجبني!"

-" أنا بخير، لكن المكان مظلم جدا، والباب لا يفتح، أظن أنني لن أخرج من هنا؟"

قال وهو متوتر جدا:" لا تخف سأجد حلا، علينا أن نجد حلا يا بياتريس، فكري هيا فكري"

قالت له وهي تبكي:" لا أعرف ماذا علينا أن نفعل، فأنا خائفة جدا، لا أستطيع التفكير..."

-" لا تبكي يا بياتريس، أحتاج لعقلك أن يعمل الان، علينا أن نحرر أخي"

في ذلك الظلام كنت أفكر في شيء واحد، إنها فعلا تعلم بتواجدنا هنا، كان لدي إحساس أنها تعلم بمجيئنا هنا، لذا كنت خائفا على إيفان وبياتريس.

-" لا جدوى من خروجي يا إيفان، خذ بياتريس وارحل من هنا...، هيا ارحلا"

-" لا يمكن أن نتركك هنا، أجننت؟ هل أقبل أن أذهب من دونك؟"

-" هيا خذ بياتريس وارحل، لعلها تجهز لكما كمينا أيضا، ارجوكما ارحلا"

-" سأحاول أن أفتحه"، أصبح إيفان في حالة هيستيرية، يضرب الباب بكل قوته، لكنه يأبى أن يفتح، حاول المسكين تحريري إلى أن خرت قواه، لم أكن أسمع سوى نحيبهما وبكاءهما...

-" لا تفعلا هذا بي، هيا ارحلا"

بنبرة صوت خافتة أجابني إيفان:" لماذا...؟ لماذا؟ أنا لا أستطيع تركك هنا، لا أستطيع"

-" لآخر مرة سأقول لكما، ارحلا من هنا"

بقينا على حالنا، إلى أن تفاجأت بإيفان يقول:" ما سبب انقطاع الكهرباء، لقد اطفئت الانوار"

بياتريس:" ماذا سنفعل الان؟"

-" سنذهب من هنا، ونجلب المساعدة لكي نحرر ماثيو"

-" نحن بعيدون جدا عن المدينة، سنتأخر عليه"

-" تشجعي، علينا أن نذهب لكيلا نصبح أسرى لتلك المجنونة، علينا أن نكون أحرارا لنساعده"

-" صحيح لكنني خائفة، لا نستطيع تركه هنا لوحده"

-" هيا اتبعيني علينا أن نذهب، لابد أن باب القبو لن يفتح أيضا"

-" حسنا سأتبعك، لكنه سيبقى وحيدا..."

-" لا تخافي واتبعي إيفان"

كان الامر صعبا على كليهما، قال إيفان بيأس:" بياتريس، لنذهب علينا أن نجد باب القبو مفتوحا، علينا أن نهرب من هنا، سننقده أعدك يا بياتريس"

في ذلك الظلام والاسر انحنيت على ركبتي، وانهمرت دموعي على الأرض دون أن أراها، بل كنت أسمعها من شدة ألمي، كنت أقول:" لقد اشتقت لها كثيرا، لقد اشتقت لأختي، لقد وعدتها..."

قالت بياتريس وأعصابها منهارة:" ما هو هذا الوعد يا ماثيو؟ ماهو هذا الوعد الذي يجبرك على أن تبقى هناك؟"

قلت لها بغضب:" اذهبي هيا، ارحلا من هنا..."

-" ماثيو...! سنعود إليك عدني أن تكون بخير"

-" أخي! هلا ذهبت، هلا رحلت"

-" بياتريس لنذهب..."

ثم ذهبا، وفي هذه اللحظة لم أكن أعلم ماذا كان يجري معهما، تمنيت فقط أن يكونا بخير...

الفصل الرابع عشر: لست أمي...

الوحدة هم ينخر الوجدان ويسلبه مشاعره الدافئة، كيف لي أن أبقي وحيدا في ذلك الظلام؟ ألا يكفي الظلام الذي يجتاح داخلي؟ ألا يكفي أن تذهب أمي وأختي، لأفقد الآن كل شيء؟ هل خلقت لأكون وحيدا، وأموت وحيدا؟تركني أخي لكن صوتا في داخلي متيقن أنه سيعود...

كنت جالسا في زاوية ما من تلك الغرفة امسك وأقلب شعيرات رأسي، أفكر فيما جرى، كنت أبكي بحرقة لأنني تركت وحيدا مأسورا، لا أعلم ماذا سأفعل؟ تركت في حيرة لا ينفع معها سوى أن أبكي كطفل صغير.

فيليب:" قلت لك أنها النهاية، لكنني لم أكن أتوقع أنها ستكون هكذا"

-" والأسوأ أنك الوحيد الذي يبقى معي دائما"

-" والأسوأ من هذا...، أنك لن تنتقم من أمك"

-" لدي شعور أنها ستأتي لتقابلني"

-" وإن كان السبب في سجنك هنا هو أن تتخلص منك؟"

-" يكفيها أن تراني وأنا أموت ببطء شديد..."

-" ومن قال أنها تكترث لأمرك؟ لابد أنها تخلصت من إيفان وبياتريس الان، وبعدها سيحين دورك"

-" لم يعد يهمني الأمر، لم يعد يهمني" وبعدها أصبت بنوبة غضب شديدة:" وإن ماتوا؟ وأن مت أنا؟ ماذا سيتغير؟ وهذا أصلا ما كنت أريد...، أرجوك دعني وشأني، أريد أن أبقى وحيدا، أحقا تخال أن هذا الظلام يخيفني، اذهب فأنا جابهت الموت مرات عدة، أتظنني أخاف من الظلام أو الموت، أنا الآن لست خائفا، نعم لست خائفا، ولن أخاف..."

-" أعرف أنك لست خائفا، لكنك مدين لأختك بوعد يجب أن تفي به"

قلت له:" ماتت أختي ببطء على يديك المتسختين، رأيت روحها النقية تغادرها شيئا فشيئا، والآن سأرى نفسي وهي تغادرني بنفس الطريقة"

-" أنا حزين لهذه النهاية يا ماثيو..."

انقضضت عليه محكما بقوة على رقبته لأقول له:" حزين...؟ أقلت حزين...؟ أنسيت أنك من أنهيت حياة أختي، تذكر دائما وحتى بعد مماتي أنك مجرم حقير"

-" لكنني مت قبلك، وأخدت عقابي"

-" وعقابك لا يكفيني لأنسى، لا يكفي...، أفهمت؟"

وبعدها بدأت أسمع خطوات أحدهم يقترب من الغرفة، فالتزمت الصمت لأسمع جيدا، أم أنني أتوهم، لكن الصوت يقترب شيئا فشيئا.

-" إيفان...! هل هذا أنت؟ هل عدت...؟"

لم أتلقى جوابا منه، ما أثار ريبتي وزاد من توتري...

-" ماذا بك؟ لماذا لا تجيب؟ ماذا حدث لكما؟"

وكذلك لم أتلقى جواب

-" إيفان...! لا تغضبني، أين بياتريس؟ تفوه بكلمة على الأقل"

انتظرت، ولم أتلقى جواب، أصبت بحيرة شديدة، ثم قلت:" من هناك؟ إن كنت إيفان فأجب لماذا أنت صامت هكذا؟ تكلم معي"

ثم بعدها سمعت صوت المفاتيح تتحرك لتفتح باب سجني، اقتربت منه قائلا:" لابد أنك يا أخي وجدت حلا لتخرجني من هنا، كنت أعرف أنك لن تتخلى عني"

فتح الباب، وأجابني صوت امرأة قائلا:" لقد تخلى عنك بالفعل"

-" من أنتِ؟"

أضاء المكان، وهرب من عتمته، لكن ما رأيت أضفى على عيناي عتمة من نوع آخر، لم أكن أصدق ما يجري، أهذا واقع أم خيال؟ أحقا كان توقعي صحيحا.

-" أهذا أنتِ...؟"

-" نعم يا ماثيو هذه أنا"

كان وقع الصدمة عليّ ظاهرا، لم أستطع أن أصدق أنها هنا، تقف أمامي بكل جرأة

قالت لي وهي تبتسم في وجهي ابتسامة غريبة:" ماذا أصابك؟ ها أنا ذا أمامك، قل ماذا تريد مني؟ لماذا تبحث عني؟ ولماذا تريد مقابلتي؟"

-" وتسألين...؟ لابد أنك تعرفين لماذا؟"

-" من أجل الانتقام، أليس كذلك؟"

-" حتى كلمة انتقام لا تكفي..."

-" ألهذه الدرجة تكرهني...؟"

-" هل تتوقعين أن اصفق لك على ما فعلته...؟"

-" ماثيو...؟ تلك الحقيرة ليست أمك "

أجبتها بغضب شديد كأن براكين تغلي بداخلي:" وانت لست أمي كذلك، ولن تكوني أمي أبدا، ستظلين مذنبة مهما كان عذرك"

-" ماذا...؟"

ثم اقتربت منها مبديا عدم خوفي، واستعدادي لأي شيء ستفعله بي.

-" تستغربين...؟ نعم أعرف الحقيقة، أعرف أنك من تخليت عني، وأعرف أنك من قتلت الام التي ربتني، وكنت سببا في موت أختي، وأعلم جيدا كيف حرمت أخي من عائلته الحقيقية، ولن أنسى كيف حبست أبي في هذا الكوخ لمدة 11 شهرا، أعرف عنك كل شيء"

قالت ونفس الابتسامة الخبيثة تعلو محياها:" لابد أنك التقيت أباك، أعلم أنه لم يمت...، آيزاك...، كان علي أن أتخلص منه أيضا..."

-" وماذا الآن هل ستمزقين جسدي أيضا؟"

-" لا لن أفعل..."

." هذا ليس من شيمك..."

في تلك اللحظة كان لوميز يوسوس لي بأن أنقض عليها، واخنقها حتى تفارق الحياة، لكنني حبست نفسي رغما عني، لا أعلم ما كان يحبسني حقا على ذلك، لكنني لم أكترث لما كان يقول.

بعد أن جلست على كرسي كان في الغرفة قالت لي:" فيما تفكر...؟

-" ما شأنك أنت...؟"

-" أتفكر في ذلك الغبي؟ لقد سمحت لهما بالذهاب لأنه لا يهمني أمرهما..."

قلت لها ساخرا وصوت ضحكي ملأ المكان:" يا لطيبة قلبك..."

-" أجل...، لستُ طيبة إلى هذه الدرجة، لكنني فعلت هذا لأنك أنت من يهمني أمره"

-" لماذا يهمكِ أمري...؟"

في هذه اللحظة كنت أسمع أصواتا عديدة تحرضني على قتلها، لقد كان صوت لوميز مختلطا مع صوت أمي، أختي، أبي، وإيفان، كانوا يقولون لي:" اقتلها، اقتلها..."، رغم ذلك لازلت أتمالك نفسي

قاطعت شرودي بقولها:" لقد كبرت وأصبحت يافعا..."

-" لن يؤثر كلامك هذا في ولو قيد أنملة"

-" لم أتخلى عنك، لكن لم يكن في مصلحتك العيش معي"

-" ومن مصلحته البقاء معك؟ إيفان أليس كذلك؟"

-" كنت أريد من آيزاك أن يذوق الالم من نفس الكأس، كما حرمني من نفسي حرمته من هناء باله"

قلت لها غاضبا:" لو كنت مهما بالنسبة لك لما حولت حياتي إلى جحيم، وحرمتني من أعز الناس إلى قلبي، ماذا فعلت أمي سوى أنها كانت أحن إنسان علي"

بعدما هجمت علي، وامسكت وجهي بقوة، قالت لي وهي تصرخ:" أنا هي أمك الحقيقية، وعليك تقبل هذا رغما عنك، وإلا..."

دفعتها بعيدا عني، وقطعت جملتها قائلا:" وإلا ماذا...؟ لن تخرجي من هنا أصلا لتفعلي ما تنوين فعله"

لكنها قالت غيرمهتمة لما أقول:" وأنا كنت أحن إنسان على إيفان، لذا شعرت أنني لم اصفي حسابي معها، كنت أنا الخاسرة فهي تنعم بزوجها والولد الذي تظن أنه طفلها"

-" بدأ كلامك يثير أعصابي...، لن أسمح لك بأن تمسي أخي بسوء"

-" لن أفعل هذا، لن أفعل فأنا أريد منك أن تسامحني، فأنا أمك يا ماثيو، وفعلت كل هذا لأجلنا"

." ماذا؟ أسامحك...؟ لست أمي لأسامحك؟ أنت قتلت أمي ولن أسامحك"

كانت تحاول أن تقترب مني قائلة:" أعلم أنني آذيتك كثيرا، لكن فعلت هذا كله لأسترجعك يا ماثيو"

-" ابتعدي! ومن أرغمك على التخلي عني؟"

-" لقد فعلت ما فعلت لأجل مصلحتك"

-" من أنت لتعرفي مصلحتي؟ من أنت لتتدخلي في حياتي؟ تخليت عني، وتعطي لنفسك الحق، لتتحكمي في مجريات حيات، لقد تعرفت عليّ منذ أن زرت إيفان في المستشفى، أم أنك تعرفينني قبل هذا؟"

-" أخبرني إيفان باسمك، وعرفت من نسبك من تكون، فاقترحت على إيفان مشروع صداقتكما، وعندها عرفت كيف أخرجك من المنزل تلك الليلة"

-" تتكلمين بكل وقاحة أمامي"

ثم صفعتها بقوة حتى سقطت على الأرض، انقضضت عليها اخنقها وأنا أقول:" لا أعرف كيف سأتعامل معك؟ كيف سأعذبك ،أقطعك، وأسيل دمك...؟ كيف تطلبين مني أن أسامحك؟ كيف تتكلمين معي ببرود كأنك الضحية"

امتلأت عيناها بالدموع، ثم قالت:" أنا الضحية، أنا ضحية خيانة، لقد خانني معها، ألا تفهم؟ ألا تعرف معنى أن تحب شخصا ولا يقدر هو ذلك؟ لقد أحببته لكنه خانني ولم يكترث"

شددت بقوة على عنقها وأنا أقول:" وما ذنبي أنا؟ وما ذنب إيفان؟ لا...، ما ذنب الصغيرة صوفي؟"

-" أختك تلك...،علمت أنك لا تحبها، وهي السبب في سوء حالتك، لذا قررت التخلص منها"

-" ماذا...؟ ماذا تقولين؟ كيف فعلت هذا؟ إنها طفلة صغيرة"

ابتسمت في وجهي ثم قالت:" لقد تعمدت إخافتها عندما خرجتما من المنزل، أعلم أنها رأتني ليلتها وأنا أمزق أمها إربا"

لم أتمالك أعصابي عندها فبدأت اضرب رأسها مع الارض،لم أتذكر أنني غضبت على أحدهم لتلك الدرجة، لم أرأف بها رغم كل توسلاتها، كانت تنزف ورغم ذلك لم أتوقف إلى أن فقدت

وعيها بين يدي، لم أعتقد أن تعجبني الرائحة التي تفوح من دمائها.

نظرت إن كانت على قيد الحياة، فكان قلبها لازال ينبض، لذا بدأت أهز جسدها واصفعها، وأنا غاضب أصرخ بكل قوتي:" أفيقي...، هيا أفيقي، استيقظي...، عليك أن تشعري بكل ذرة ألم..."

لكنها كانت مستيقظة حقا، وأخدت خنجرا من جيبها وحاولت أن تغرسه فيا، لكنني انتبهت لها وأعترضت بيدي الخنجر، كنت أقاومها وهي استغلت الوضع وانقلبت علي...

بعدما كنت على وشك الهلاك، ابتعدت عني، وتركتني أنزف من يدي.

قالت بتهكم:" لقد خارت قواي حقا، غلبني طفل حقير..."

-" ليس هناك من هو أحقر منكِ"

لكنني كنت قد أخذت ذاك الخنجر، لذا قلت لها بعدما أظهرته لها:" أ تظنين أنني سأشفق على حالك؟ فلأراك تتقلبين من شدة الألم، هذا ما يهمني"

-" هل ستقتلني؟"

-" نعم... لن أترككي خلفي"

هجمت عليها بكل قوتي لأغرس الخنجر في عنقها، لكنني نسيت أنها لا تخسر أبدا، فغرست سكينا آخر في قلبي مباشرة غدرا، دون أن ادري.

همست في أذني:" أنت من اخترت أن تموت..."

انتبهت إلى الدماء التي تنزف مني، فأدركت حينها أنها النهاية لذا قلت لها قبل أن يلقى كل منا حتفه:" لقد حققتِ لي أمنية كنت أتمناها منذ مدة طويلة، أنا الان راض"

وبعدها استعملت اخر قطرة من روحي، لأجر الخنجر وأقطع أوصال عنقها، لن أموت وأنا غير متأكد من موتها، سقطت جثة هامدة، ليتبعها جسدي قلت في نفسي عندها:" وأخيرا سنلتقي يا صوفي "

سمعت قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة صوت أخي وهو يصرخ باسمي،أما بياتريس فقد فقدت توازنها، وسقطت مغشيا عليها، لقد كان مشهدا مريعا جدا، لذا أغمضت عيناي ورحلت عنهم...

بعد حين رأيت وجه صوفي الحسن، حاملة في يدها باقة زهور وتتجه نحوي مبتسمة، لقد كبرت وأصبحت جميلة جدا.

نادتني أختي:" أخي ماثيو..." عانقتني قائلة:" لقد اشتقت إليك كثيرا"

ابتسمت في وجهها وقلت لها:" وأنا أيضا يا أختي لقد اشتقت لك كثيرا"

-" خذ لقد جمعت هذه الورود لأجلك"

-" إنها جميلة مثلك يا أختي"

-" لنذهب، فأمي تنتظرنا هناك، عند ضفة النهر"

-" أين نحن الآن؟"

-" نحن في مكان لن يستطيع أحد أذيتنا"

-" لقد اشتقت لأمي، هيا لنذهب إليها"

مات ماثيو مخلفا وراءه آلاما لا تمحى، ولا تختفي مع مرور الزمن، لعله الان التقى بأخته وأمه كما كان يتمنى، لعله الان ينعم بالهناء والسعادة، لكن الامر لم يكن كذلك بالنسبة لإيفان، فماثيو بالنسبة له هو الامل، السند والقوة، لم يكن يعرف كيف سيعيش من دون أخيه.

طرقتْ باب غرفته بحنو، لكنه أجابها بنبرة حزينة:" غير مرحب بالزوار"

بياتريس:"ارجوك لا تقسو على نفسك..."

أجابها إيفان بغضب:" انتِ بالخصوص لا أريد ان اراك ولا أريد أن اسمع صوتك" ثم فتح الباب بعنف واردف قائلا:" لا أريد أي شيء منك، لأنك لن تستطيعي اعادته إلى الحياة"

-" لكن ماثيو ما كان ليرضى عن حالك هذا"

دفعها حتى سقطت ارضا ولم يأبه لها من شدة غضبه، قال لها:" لم يعد هناك طائل من وجودك أنت ايضا، اذهبي ولا تعودي أبدا، رحل كل شيء لذا لن يؤثر فيا رحليك"

-" لكنني لا أستطيع، لازمتك لفترة طويلة...، لا أعرف كيف سأعيش من دونك"

ثم وقع على ركبتيه وهو يصرخ:" لماذا يا ماثيو؟ لماذا تركتني وحيدا؟" نظر إليها وهو يبكي بحرقة وقال:" حتى أنا لا أعرف كيف سأعيش من دون أخي"

تابعته بعينين مغرورقتين بالدموع، وأرخت جناحيها له:" إيفان...، هلا هدأت أرجوك" قالتها بحنو رغم احتدام الالام على

قلبها، عانقته ثم أضافت:" قد لا تحتاجني، لكنني أحتاج إليك وأريد أن أبقى معك"

تمسك بها وقال لها:" لماذا ذهب عنا ماثيو؟ دائما ما كان أنانيا معي، ذهب حتى دون أن يودعني"

ثم استسلموا لقلوبهم التي وصلت لحناجرهم من شدة الحزن والكرب، تعانقوا وبكوا وعزوا بعضهم وكانوا سندا لبعضهم البعض...

بعد مرور20 سنة...

-" ماثيو هيا اتسيقظ الفطورجاهز ستتأخر على الجامعة"

-" أمي فقط القليل بعد أرجوك..."

-" هيا انهظ لا تتكاسل..."

مرحبا أنا ماثيو آزلبير، وهذه امي بياتريس.

-" حسنا أمي أنا قادم..."

وهذا الذي على مائدة الافطار هو أبي إيفان آزلبير.

-" مرحبا أبي..."

-" تجهز سريعا، سآخدك في طريقي إلى الجامعة"

-" أين جدي آيزاك؟"

-" إنه في غرفته، لابد أنه لازال نائما"

رُزق والداي بأختي الصغيرة أيضا اسمها صوفيا، لأن عمتي الراحلة كانت تحمل نفس الاسم أيضا.

لكن عندما أنفرد بنفسي في غرفتي وأنغمس في مخيلتي الواسعة، هناك أتعرف على الشخص الذي يرافقني، إنه رجل مسن وبشع الهيئة وثيابه رثة، لكنني ألفت وجوده اسمه فيليب لوميز.

-" مرحبا ماثيو"

-" مرحبا أيها العجوز، عندما أعود ستكمل لي بقية القصة"

-" نهاية القصة تعرفها جيدا"

-" لكنك تعرف تفاصيا اكثر، أم أنك اصبحت تنسى؟"

تمت بحمد لله